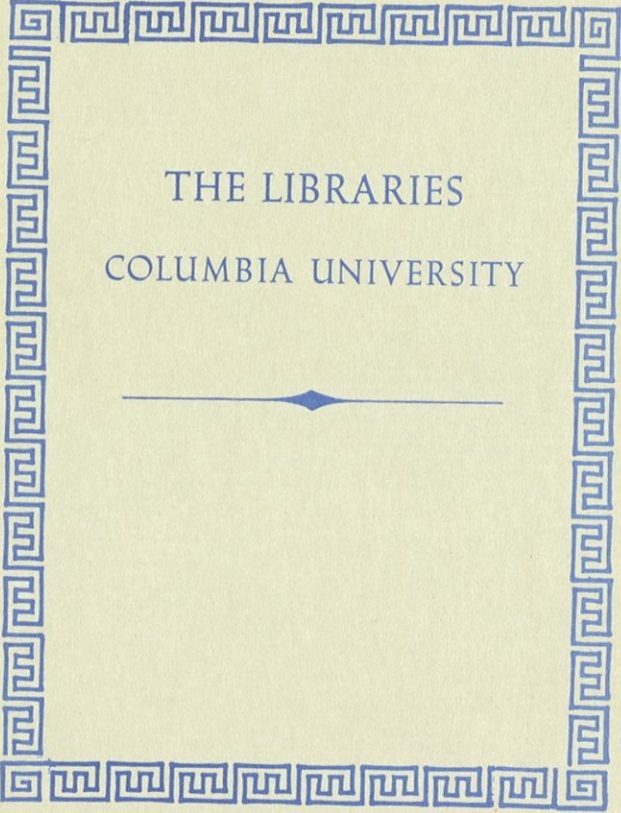



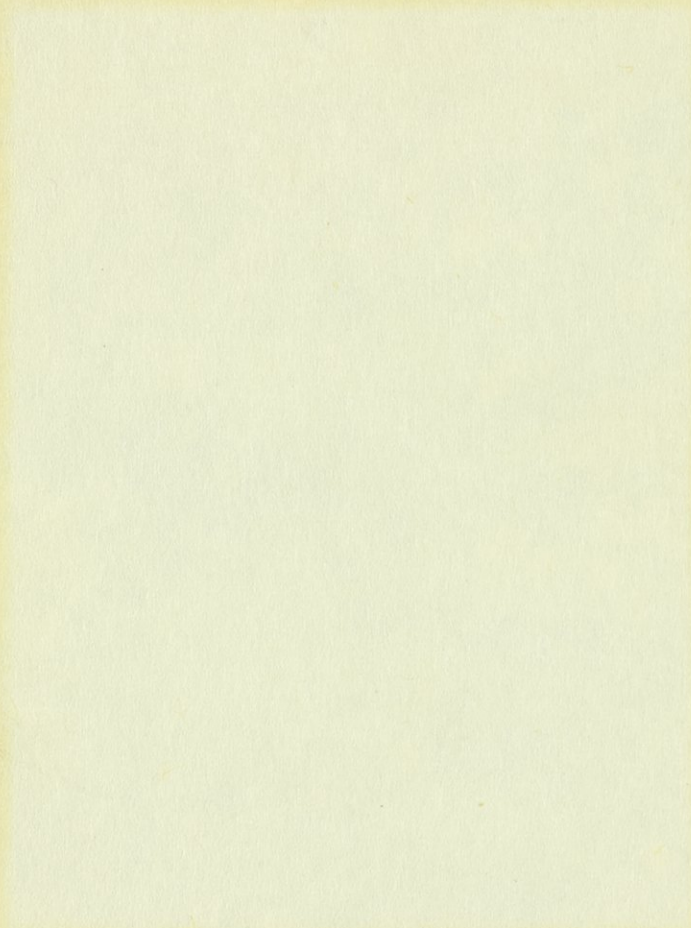


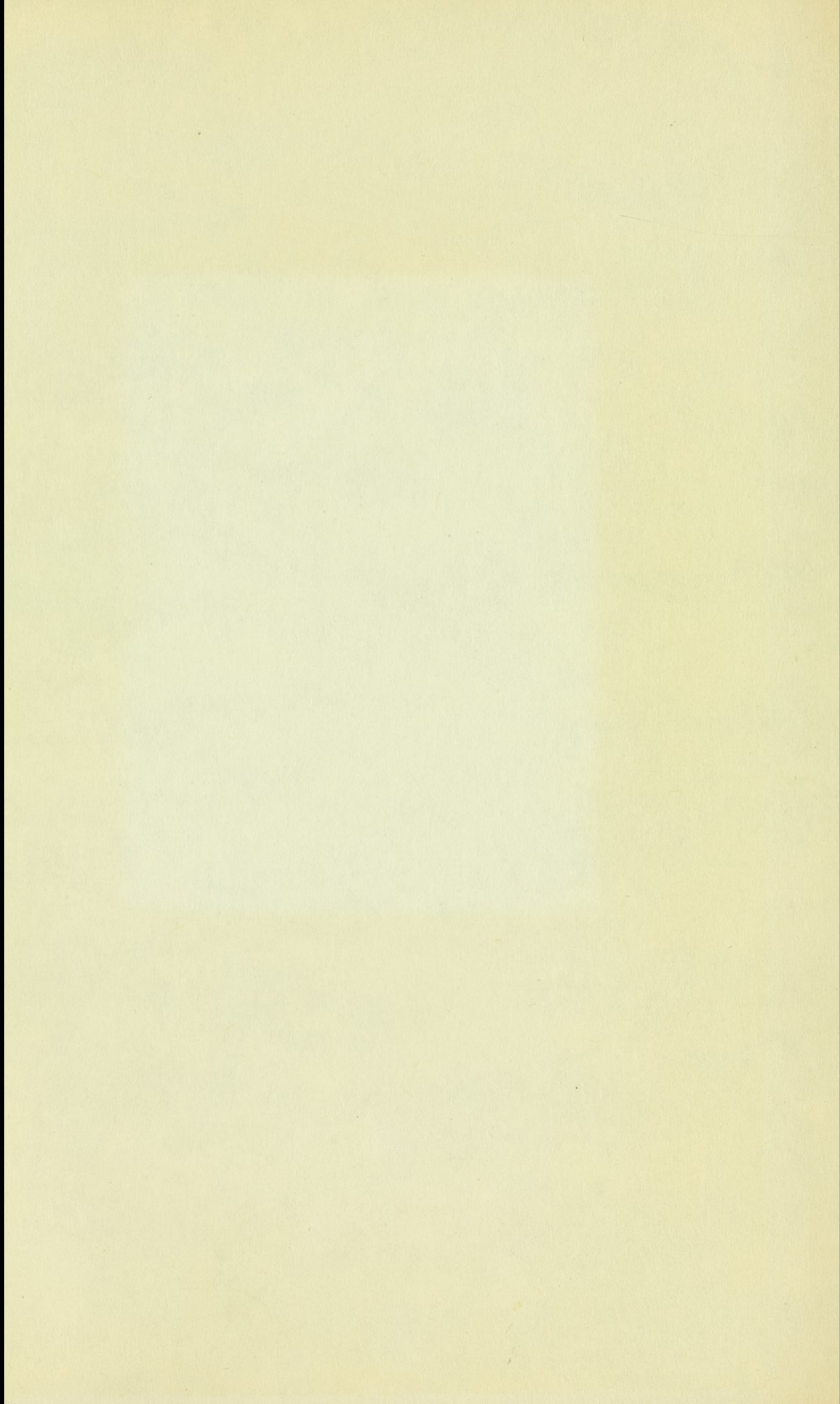
Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY







وزارة الثقافة والارشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

حفظ

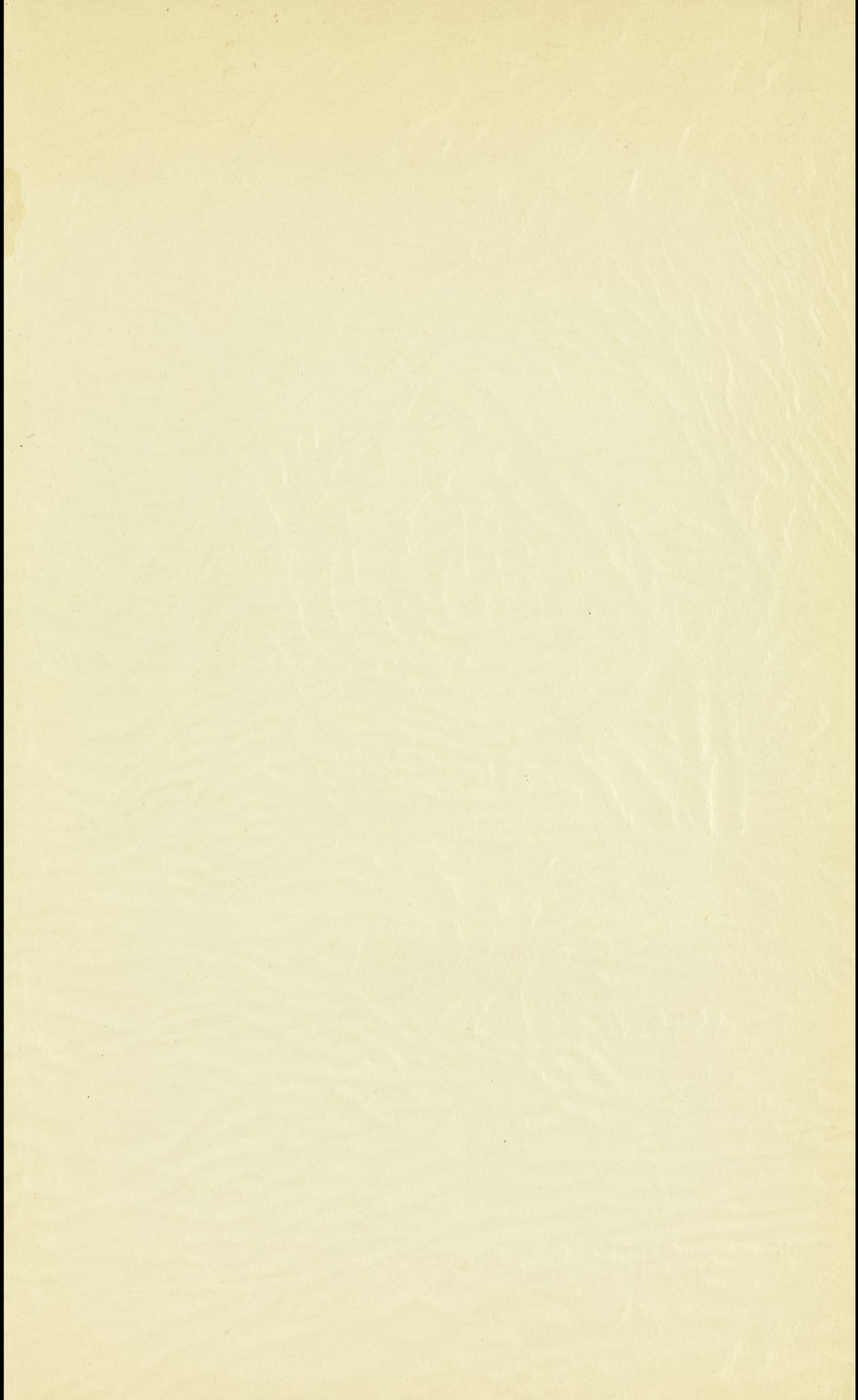
السيرة النبوية

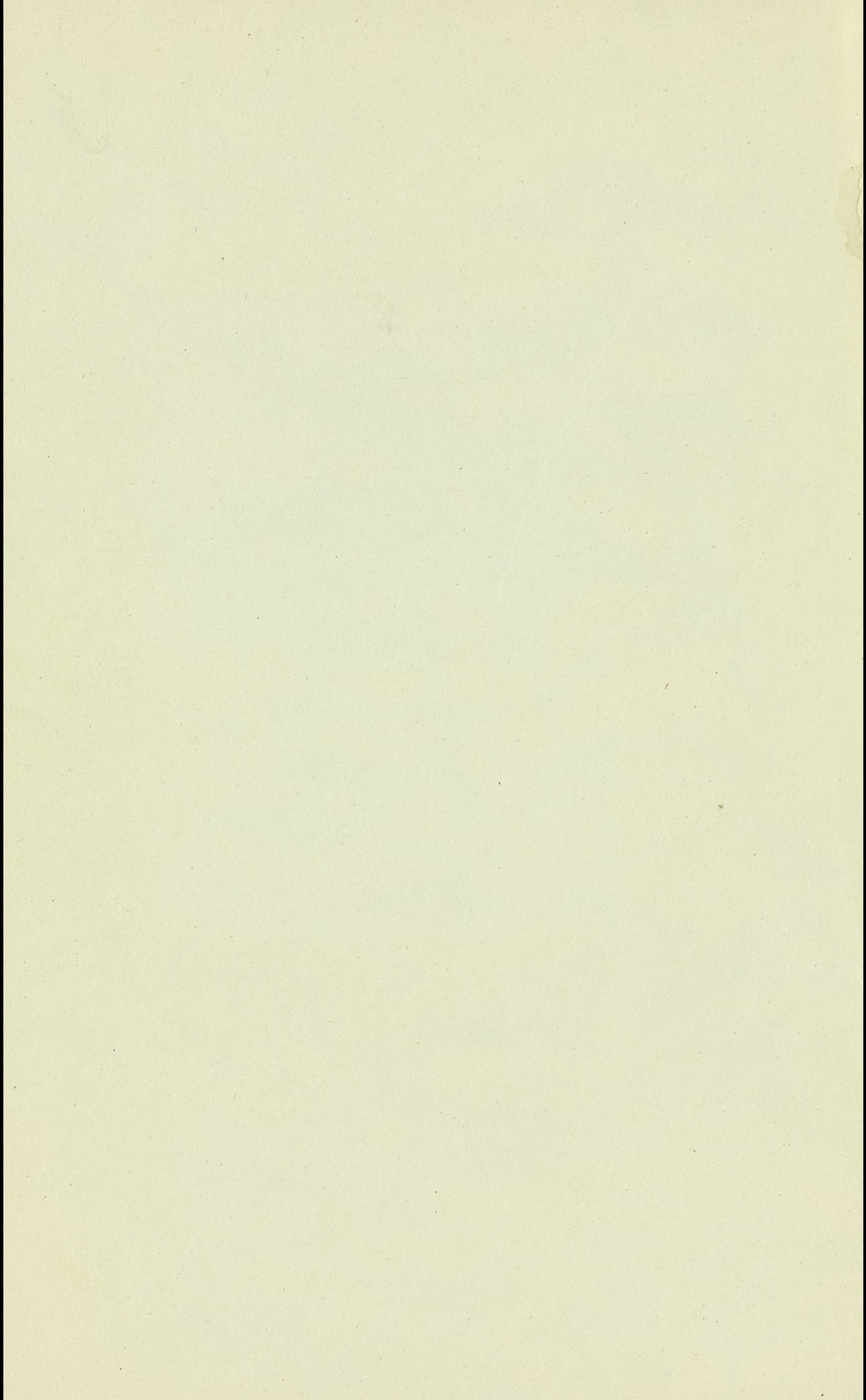
مراد السباعي

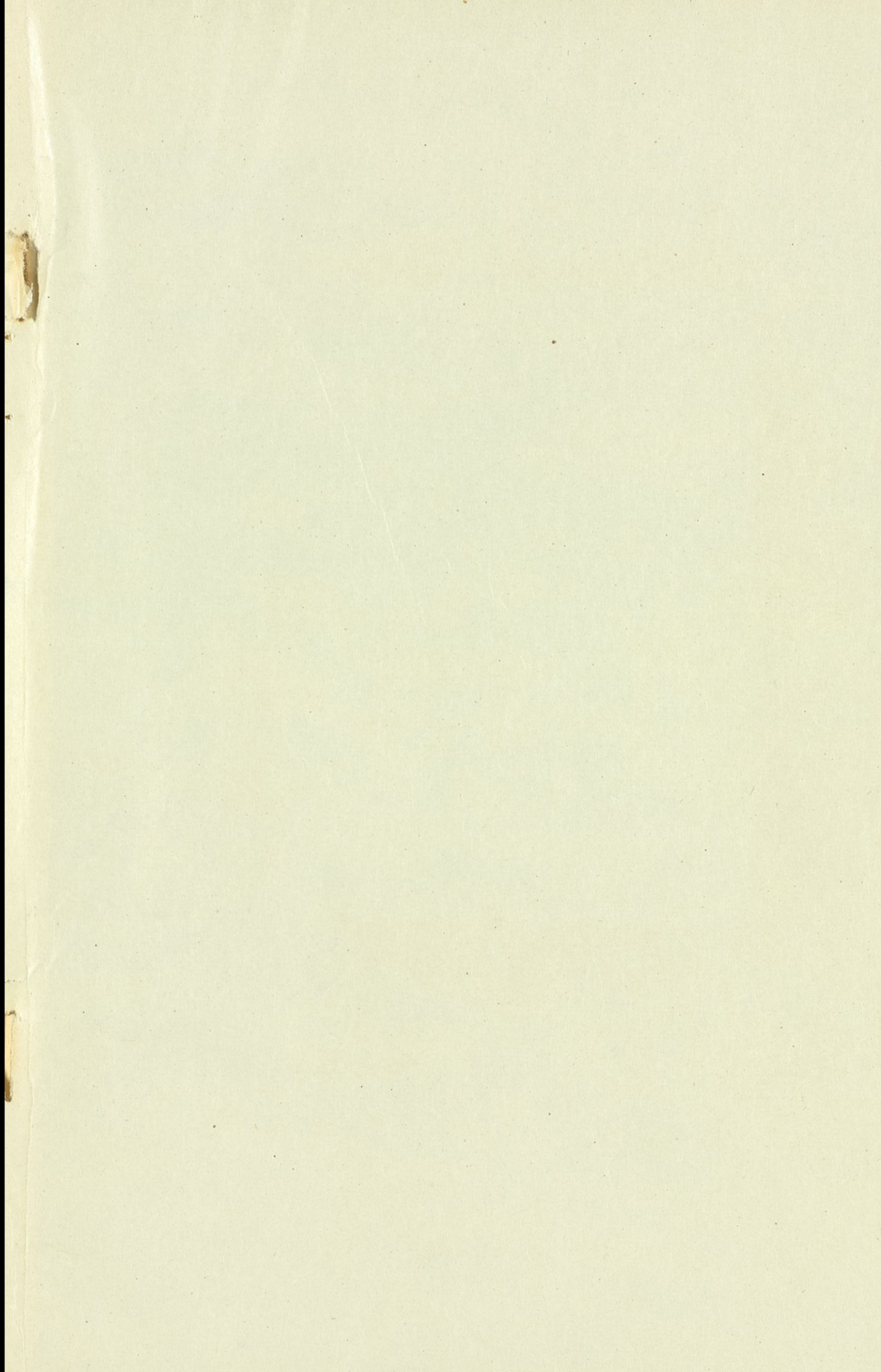
دمشق ١٩٦٢

السلسلة القصصية

٤







الشرارة الاولى

17

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

السيرة النبوية

مراد السباعي

دمشق ١٩٦٢

السلسلة القصصية

٤

~~956.9
Vn 27
4~~

956.9
Sy 27
4

منشورات دار الثقافة في دمشق

مقدمة

لعل اصدق تعريف للقصة هو انها قطعة من الحياة مصورة بشكل مكثف . وهي عندي ككل فن ، لا تركز على قاعدة ، ولا تتقيد بشرط ولا تحد بأسلوب اي انها طليقة من كل ما اصطلح عليه النقاد من اسماء وتصانيف .

واذا كان لا بد لها من شرط ، فشرطها الوحيد موهبة القاص لا غير . وفي متاهات القصة متسع غير محدود لكل كاتب ، يضمناها ماشاء من عواطفه وافكاره وميوله ، ثمريطة ان يصاغ ذلك بأسلوب فني جذاب وان يظل في حدود الامكان والجمال .

اي ينبغي على المؤلف اذا كان يملك الرقابة الفنية على قلمه ، ان يوجهه الى نفسه ، في حالة الابداع الذاهلة ، السؤال الآتي بعد كل صورة او فكرة يثبتها على الورق : هل هذا ممكن : واذا كان ممكناً فهل هو جميل ؟.

وعلى هذا فيكون (الامكان) و (الجمال) هما اول او اقوى مطلبين لبناء القصص الفني . ومن هنا نستطيع القول ان القصة لا تقبل المبالغة والتضخيم ، كما تقبلها الاسطورة والريبورتاج ، كذلك لا تقبل الافكار المجردة ولا التوجيه السافر ، لانها في حد ذاتها غير جميلين ، ولا تهتم بالخير والشر لانها سواء

بنظرها ولا افضلية لاحدهما على الآخر الا بمقدار ما يحقق من جمال وسمو في الابداع .

واذا كانت القصة لا تقبل المبالغة والتجريد والتوجيه السافر فهي ايضاً لا تقبل الصراحة والوضوح بشكل من الاشكال ، ولعل من اكبر عوامل النجاح في القصة ان يشوبها شيء من الغموض يستمر معها حتى النهاية ، اي ينبغي علينا ونحن ننشئ قصصاً فنية ان نضع القارىء دائماً في جو مشبع بالضباب ونحيطه باسيجة كثيرة من الحيرة والشك ، وقد يكون من الجميل جداً ان نترك له حرية التخيل والمشاركة في ايجاد الحلول ، وذلك بعدم اعطاء القصة نهاية تامة . قلت ان الامكان والجمال هما اقوى مطلبين لبناء القصص الفني . والامكان في التعبير الاصطلاحي هو حدوث الحادثة وانسجامها مع هيكل القصة بشكل طبيعي لا يحدث اي ارتباك او تنافر مع الوقائع السابقة وما قد يجيء بعدها ، اي ينبغي على الرابط الفني ان يشكل وحدة تامة لاجال لغير المعقول ان يتسرب اليها ، فكل حادثة في القصة لا يمكن قبولها اذا لم يكن هناك من الاسباب ما يبرر وجودها تبريراً قوياً ، ويجعله كضرورة لا يمكن الاستغناء عنها ولا بوجه من الوجوه . وان مجرد السؤال :

لماذا كان هذا ولم يكن غيره مما هو اكثر امكاناً منه يعتبر نقصاً في القصة .
اما في الاسطورة والحرافة ، فليس للامكان ادنى قيمة ، هذا اذا كانت افكارنا قدهيتت مقدما لان تضع غير الممكن في اطار الممكن ولهذا وجب ان تبدأ الاسطورة والحرافة بكلمات تبطل عمل التأكيد ، وتفسح مجالاً للخيال ان يسير على هواه ووفق مشتهاه ، وفي قولنا زعموا وحكي ما يضطرنا الى الانسلاخ عن واقع الحياة المقيد بدساتير كونية لا تقبل الخوارق الى واقع اخر يجوز فيه كل شيء .

ولنتحدث الان عن المطلب الثاني اي (الجمال) والجمال في معناه الفني هو

ارتفاع الصورة او المشهد الى منزلة من الابداع تجعله جميلا وان لم تكن له صفة الجمال في الواقع ، ففي دمامة الشر والالم مايساوي في قيمته الفنية جمال الخير واللذة ، وانا حين اقول ذلك لا اقول من وجهة النظر الموضوعية للقصة ، اي لا اعالج القصة كموضوع ، بل كفن ، ونظرة الفن الى الاشياء واحدة ، لا تفضل فيها ولا تميز الا بمقدار ماتكون عليه من قوة التعبير عن ذاتها كحقيقة فنية سامية .

افلا يقال مثلا في عالم التصوير والرسم ان هذه الشوكة اجمل من الورد ؟ .
فكيف امكن للشوكة ان تكون اجمل من الورد لولا ان الفنان الذي رسمها معاً قد اعطى الشوكة من فنه وموهبته ما لم يعط الورد ؟ ..

وما يقال في هذا المعنى عن الورد والشوك يقال عن الخير والشر ، وعلى هذا الاعتبار فليس حتما على القاص ان ينهي اقاصيله بانتصار الخير على الشر ، فكثيرا ما نرى الشر يخفي وراء قبجه من صور الخير ، الشيء الكثير . فنحن حين نصور الحروب ونظهر ويلاتها فاننا انما نعمل خيرا ، وما من شك في ان الشر والالم اشد تفاعلا في النفس من ايجابية الخير وسداجته .

والحقيقة التي لا نستطيع نكرانها ولا اهمال شأنها ، هي ان الحياة ليست خيراً كلها ، وانه لمن المضحك ان نتصورها مجردة من الشر حتى في المستقبل المثالي الذي نحلم به ، فمن طبيعة الحياة انها تقوم على التناقض وتدرك به ، والمشكلة ليست مشكلة تفاؤل وتشاؤم كما يدعي البعض بعضهم ، ولكنها مشكلة حياة تأبى الاستجابة لغير دساتيرها ..

واذا كان الامكان والجمال هما اقوى مطلبين في القصة فلا يعني ذلك ان باستطاعة القصة ان تأخذ مكانتها الفنية دون العناصر الاخرى التي تجعل منها كلا فنيا قائما بذاته ، وعناصر القصة كثيرة ، اهمها واجدرها بالذكر العقدة والغموض ، السرد والحوار ، الموضوع والتوجيه ، الشخصية الروائية .

العقدة والغموض

لا ريب في ان الغموض من اقوى عناصر التشويق في القصة ، ولولاها
لكانت القصة شيئاً مملاً لا طعم له ولا لذة ، فكل (عقدة) تتطلب من حولها
جواً معتماً يلزمها حتي النهاية ، وكل وضوح يمكن ان يطرأ على العقدة يضرب
القصة في صميمها ويعرضها للسقوط فنياً ، فالرغبة في معرفة الشكل الذي
ستكون عليه النهاية هي التي تهيب بالقارئ الى تتبع سياق الحوادث ، وتخلق
في نفسه الشوق لمعرفة سرها المخبوء .

قد يقول بعضهم ان هنالك قصصاً خالية من كل تعقيد ، فلماذا اذن نغالي
في قيمة الغموض ونجعله من العناصر الرئيسية التي لا تستقيم القصة بدونها ،
وجوابي على ذلك انه يستحيل على اية قصة من اي نوع كانت ان تخلو من عقدة
كما يستحيل على اية مقطوعة موسيقية ان لا تكون ذات ايقاع وضرب ، بيد
ان درجة الايقاع تتفاوت بين القوة والضعف ، حتي يخيل اليها وهي في حالة
ضعفها انها غير موجودة ، كما هي الحال في التقاسيم ، وحين تجيء عقدة القصة
خفيفة بسيطة لا تكاد تحس فلا ينفي ذلك عدم وجودها اصلاً .
وما دامت هنالك عقدة فالغموض في القصة من اكبر ضروراتها .

الموضوع والتوجيه

اما الموضوع فهو لا يمكن ان يحسب في جملة العناصر الهامة التي تكون
القصة ، فهناك قصص كثيرة لعظماء القاصين خالية من كل موضوع ، اي انها
لا تلتزم في محورها الرئيسي الذي تدور عليه اي غرض اجتماعي او فلسفي او
علمي ، الا ما جاء من هذه الاغراض عرضياً غير مقصود ..

وليس من العدل في شيء ان نقول ان هذه القصص الخالدة عديمة النفع

والقيمة لانها غير موجهة كما ان خلوها من التوجيه لا يعني ان القصة لا تقبل التوجيه اطلاقاً ، بل لعلها خير واسطة يمكن ان نداوي بها امراضنا الاجتماعية شريطة ان يأتي التوجيه فيها ممزوجا بجلاوة الفن ، مما يخفف من مرارته كدواء فالقصة كما قلت في السابق ، لا تقبل التوجيه السافر ، وليس من شأنها مهما كان لونها ان تكون منبرا لخطيب في جامع ، او مقرا سياسيا لحزب من الاحزاب او ندوة جافة من ندوات الفكر والتفلسف بيد انها قد تقبل كل هذا مجتمعا حين يجيء وعلى وجهه برقع الفن .

واجمال التوجيه واعمقه اثرا في النفس ماتنطق به الحوادث ، فان للحادثة من قوة التعبير مالا يبينه افصح لسان ، والحادثة تظل اعلق بالذاكرة من الكلام التوجيهي الذي يمر به القارئ مسرعا وكثيرا ما يطوي بعضه تخلصا من الملل والسأم ، لا سيما اذا طال وامتد وتشعب وقضى على التسلسل الفني للقصة .

ولا مرء في ان معظم قراء القصة اميل الى اجتناء المتعة واللذة منهم الى التوجيه والمنعة وهم على حق فيما يذهبون اليه ، فللتوجيه السافر والفكر المجرد مكان آخر غير القصص وهم حين يطلبونه لا يتعذر عليهم الحصول عليه في الكتب والمقالات المخصصة له .

السرد والحوار :

ان الشيء الاساسي في كل فن هو اخضاع مادة الفن للارادة ، ومادة الفن في القصة هي الكلمة ومن الكلمة يتألف السرد والحوار . والسرد هو الاسلوب الانشائي المستعمل في تصوير الاشخاص و سرد الحوادث و تحويل الافكار والمشاعر وتجميدها في قوالب كلامية . واما الحوار فهو القول المستعمل في الحديث والمخاطبة وشرطه الاول ان يكون طبيعيا ومنطقيا وبعيدا كل البعد

عن ترديد المترادفات والقاء الجمل ذات الرنين الخطابي وان لا يصدف عن
المؤلف من احاديث الناس التي تتسم عادة بالبساطة ..

واعتقد ان القاص المتمكن من فنه هو الذي يستطيع سواء في السرد او
الحوار اخضاع الكلمة لارادته اخضاعا تاما واستعمالها في المكان الملائم لها بحيث
تجيب معبرة تمام التعبير عن اغراض المؤلف وما يدور في ذهنه من افكار
وعواطف ولمح فني ..

وفي الحوار اتجاهاً واحدهما يقول باستعمال اللغة العربية الفصحى والآخر
باستعمال اللغة العامية وانا اميل الى الأخذ بالاتجاه الاول والتشدد فيه ، وذلك
لان اللغة العامية التي تسودها لهجات واصطلاحات كثيرة والمليئة بالكلمات
الاجنبية من فرنسية وتركية وفارسية قد اصبحت بعيدة كل البعد عن اصلها
العربي ولم تعد لغة مشتركة تستطيع الشعوب العربية التفاهم بواسطتها . واما
اللغة العربية الفصحى عدا عن كونها الوعاء الضخم الذي يحوي تراثنا الفكري
والادبي والروحي فهي اقدر على التعبير عن مشاعرنا وافكارنا لكثرة مفرداتها
المتميزة بدقة المعاني . مما يعطي القصاص مجالاً ارحب في القدرة على الخلق
والابداع .

وقد يزعم بعضهم ان العامية اقرب الى الواقعية من الفصحى ويضرب
مثلاً على ذلك اننا في حياتنا انما نتحدث باللغة العامية ولكن هؤلاء ينسون ان
الواقعية ليست هي الشيء الذي يجري فعلاً في حياتنا بكل ما فيه من جزئيات
وتوافه وانما هو الشيء كما هو في جوهره وحقيقته وخصائصه المميزة .

الشخصية الروائية :

لا ريب في ان الشخصية الروائية هي العنصر الاساسي الذي يرتكز عليه
بناء القصة بأكمله ، وبقدر ما يكون هذا العنصر متوفراً في القصة بشكله

السليم تكون القصة مقبولة من الناحية الفنية ، ولا اعتقد ان الابداع القصصي يمكن ان يتجلى في ابهى صورة الا حين تكون الشخصية الروائية متكاملة متجانسة لاتناقض فيها ولا تفكك .

و عملية تصوير الشخصية الروائية عملية شاقة وصعبة ، اذ ليس من السهل ان نخلق حياة انسانية كاملة ، حياة من صنع الوهم و الخيال تعلق بذاكرتنا كما يعلق الاشخاص الحقيقيون ونحس بوجودها احساسنا بوجودهم . ان الرسام في فن التصوير يمكنه ان يرينا صورة لشخص من الاشخاص و ان يعطي هذا الشخص تعبيراً ازلياً حالة من الحالات الزمنية ، وقد يدهشنا عمله فنقف امام ريشته الخلاقة مكبرين ما يستطيع ان يفعل الفن ، ولكن اي شيء في هذه الصورة التي التزمت حالة زمنية جامدة لا تقبل التبدل يمكن ان يقاس مع الصورة الكاملة ، للشخصية الروائية التي يبدعها القصاص ، تلك الصورة الحية الناطقة المتحركة التي توحى الينا بالف لون و لون من العواطف و المشاعر و الافكار . . الحق انه لاسبيل اطلاقاً للقياس و المقارنة بين العاملين .

و على هذا فخلق الشخصية الروائية يمكن وصفه بانه ذروة العمل الفني في القصة ، فهو صعب و دقيق و يحتاج الى موهبة كبيرة خلاقة لا وجود لها عند الكثيرين ممن يمارسون كتابة القصة . وليس من السهل ابداعاً على القصاص تحديد الخطوط الرئيسية للعاملين الخارجي والداخلي للشخصية الروائية ففي العمل الخارجي ينبغي عليه ان يخطط اولاً صورة الشخصية في ملامحها الشكلية البارزة ثم يوضح المؤلف و الشاذ من هذه الملامح مظهرها بجلاء التأثيرات الخارجية التي تتركها بيئة الشخصية على شكل الجسم و تقاطيع الوجه ، ومتى تم له ذلك شرع في تصوير العمل الداخلي لشخصيته فيصور اخلاقها و عاداتها و سلوكها و حالاتها الشعورية ازاء الاحداث و المفاجآت ، و لا يكون ذلك بواسطة الوصف فقط بل بما يصدر عن الشخصية من فعل و قول و حركة و تصرف

وذلك بشكل تطوري مركز لا يترك مجالاً لأي تناقض ان يتسرب اليها
فيفكك انسجامها ويقوض بناءها الفني ، ويجعلها خليطاً من الشخصيات لا طابع
لها يميزها عن غيرها من الشخصيات المعروضة في القصة والتي ستجيء جميعها نتيجة
لعدم تماسكها و انسجامها وتركيبتها متشابهة كقطع الكاتو المصبوبة في قالب
واحد .. فسامي كاحمد واحمد كخالد وخالد كبدر الدين .

هذا ما اعرفه عن فن القصة في خطوطها العامة وقواعدها الاساسية
وعناصرها البارزة قدمته اليكم دون التعرض الى جزئياته وتفصيله ، وقد
استوحيت من تجاربي الخاصة في هذا الفن .



(١) السرايرة للهوى

اسمها فتنة ..

ولكن الناس اطلقوا عليها لقب (حسن صبي) فصارت تعرف به ..
وهذا اللقب يطلق عادة على الفتيات المسترجلات ممن يسلكن سلوك الصبية
ولا يتحرجن من الاختلاط بهم ومعاشرتهم .
لا احد يعلم على الضبط من هو ابوها ..
فهي وحيدة تسكن في حانوت خرب ، كان ذات يوم مصنعاً للحياكة
اليدوية لرجل اسمه (الزاكي) ..

وهناك من يؤكّد ان فتنة هي بنت (الزاكي) .. فلقد كانت امها
الشحادة (ام سامون) تكثر من التردد عليه .. وثمة دليل آخر يثبت
ذلك ويدعمه ، وهو انه - اي الزاكي - قد اوصى لفتنة قبل موته
بكل ما يملك ..

ولم يكن يملك شيئاً ذا قيمة تذكر .. و لولا ما كنا نتصدق به عليها ،
نحن اصدقاءها مما نسرقه من بيوتنا من طعام و كسوة لماتت من البرد والجوع

(١) لقد ترجمت هذه القصة الى اللغة الروسية في كتاب صدر عن دار
النشر في موسكو بعنوان (قصص من سورية) .

او امتهنت الشجادة كامها ، او استسلمت الى ماتستسلم اليه فتاة متشردة في مثل
سناها ، لاتدرك بعد من امور هذا العالم مايعصمها من الخطيئة ..

لا ادري لماذا كانت تطيب لنا الاقامة عندها ، في ذلك الجو الكئيب المعتم
المشبع برائحة العفن والرطوبة ، والمليء بالحشرات من شتى الانواع . خنافس
وديدان وعناكب ، فئران وذوات الاربع والاربعين وحيات .

وما اكثر ما كنا نقضي اوقا طويلة في التنقيب والبحث عن مثل هذه
الحشرات في اوكارها ، او بين التراب الناعم البارد ، فنقتلها مبتهجين فرحين ،
كأنا قد فعلنا شيئاً حقيقياً بالتفاخر .

واذا كان لا بد من سبب لتعلقنا (بفتنة) فاكبر الظن ان ثروتها الحلوة
واكاذيبها الطريفة وحكاياتها الممتعة عن الجان ، هي التي كانت تضي عليها الوانا
من الجاذبية والسحر ، تجعلها محبة الينا ، وتشدها الينا برباط وثيق من الأخوة
يزيل ما بيننا من الفوارق ، وينسبها حقيقتها كفتاة حقيرة قدرة يبندها الناس
ويخافونها كما يخافون الاوبئة ..

فلقد كنا نتحمل من قبل اوليائنا اشد ضروب التعنيف لاحتفاظنا بصداقتها
واخلاصنا لها .. بيد ان ذلك الزجر والمنع لم ينتج سوى الحب والتعلق ، وظل بيتها
المقر الوحيد الذي نقضي بين اوساخه وحشرات اوقات الفراغ في لعب صياني
وتسلية بريئة ..

وليس هذا ما اريد ان اذكره من حياتها .

وما قيمة حياتها التافهة لولا ذلك الحادث الضخم الذي رفعها الى منزلة
العظيمات من بنات جنسها ، ووضعها من نفوس الناس الذين كانوا يحتقرونها
ويزدرونها موضع الاحترام والاجلال .

ففي ذات يوم محوم من ايام حزيران رأينا انفسنا ، انا وفتنة ورهط

من صبية الحى ، نجري وراء مظاهرة هائلة انطلقت من المسجد الكبير باتجاه دار الحكومة دون ان نعرف الغرض الذي يحفز الناس الى هذا التظاهر .

فكل ما كان يجول بخاطرنا آنذاك اننا ذاهبون لمشاهدة شيء جديد لم نألفه من قبل شيء لا بد ان يكون في منتهى الروعة والفخامة ، والا لما تطلب كل هذا التجمهر الذي جمع الشيوخ والشباب والطلاب والاطفال والنساء في موكب واحد ، يهتف وينشد ويصخب ، ويدعو للتجار وصغار الباعة الى اغلاق حوانيتهم ..

ولكن الكلمات الحماسية التي كنا نسمعها من افواه الطلاب او نقرؤها مكتوبة بالاحمر على لوحات كبيرة من النسيج الابيض قد نهتتا الى ان الامر لا بد ان يكون على شيء من الخطورة والجد ليس بالقليل ..?

و مهما تكن درجة فهمنا لواقع الحال فنحن في الاغلب كنا مسوقين بدافع الفرجة ، الفرجة وحدها ولا شيء غيرها ، فهذه الجموع الكثيفة المتحفلة لا يمكن ان تنطلق هكذا دون غاية او دون وقفة اخيرة تحدد بها ماتريد ..

وسرنا بين ارجل الناس ، نتنفس غبار النعال ..

و كنا متساندين متكاتفين خشية ان يتفلت احدنا فيذهب ضحية نالزحام ..

وكانت المظاهرة تزداد ضخامة وشدة كلما دنت من الساحة العامة ، وكان الهتاف والصراخ ودوي المفرقات يصبم الآذان ، ويضاعف في روعة الموكب وخطره ..

وسألني فتنة وهي تنظر الى لوحة مكتوبة :

— ماذا يكتبون على هذه اللوحة ؟.

فقرأت لها الجملة التالية « تحي الحرية ويسقط الاستعمار » .

- وما معنى الحرية ؟

و اربكني سؤالها فصمت ، ولكنني ازاء الحاحها الشديد اجبت بما
معناه :

- الاستعمار يعني وجود الفرنسيين في بلادنا ، و اما الحرية فهي طردهم
بالقوة .

- اذن فالحرية تعني محاربتهم ؟

- شيء كهذا ..

ولكن كيف نحاربهم بدون رشاشات ومدافع وطائرات ؟ ايكفي
العصا والمقلع ؟

- يكفي ويزيد .. السنا اكثر منهم عدداً ؟ ..

ورسقتني بنظرة مليئة بالشك ، ثم ضغطت على يدي بقوة ، و اسرعت
الخطو ..

وهناك في الساحة العامة حيث تجمر المتظاهرون امام دار الحكومة
تسلقنا حاجز الحديقة الحجري ووقفنا تحت شجرة ظليلة من اشجار الاكاسيا
بحيث نستطيع ان نرى ونسمع كل شيء ..

واذكر انه قد راقني جدا ان اجد الساحة مغطاة بآلاف الرؤوس
البشرية ..

رؤوس مشكاة ..

عمائم وطرايش وقبعات وشعور مسرحية ومنبوثة ، وكوفيات وعقل
وطاقيات مختلفة الالوان والاشكال ..

منظر بهيج حقا ، اشبه مايكون بمديقة ازهار ! .

وكانت دار الحكومة موصدة الابواب تحرسها حامية صغيرة من الشرطة
والدرك وقد احتشد الموظفون وراء نوافذها العالية ينظرون الى الساحة «

يعيون قلقه تم عما يشعرون به من حيرة وخوف .
ومن بعيد في نهاية الشارع المقابل للساحة ، كانت تبدو بناية القيادة الفرنسية
وقد رابطت امامها فرقة من السينغال وسيارة مصفحة ..
لما بقية الشوارع المتصلة بالساحة فكانت شبه خالية ..

وفي ذلك الجو العاصف المكهرب ، المشبع بروح الحماسة الوطنية ، والذي
كان خطباؤه يلهبون عواطف الشعب بما يلقونه في آذانهم من كلمات مشتعلة
يجن لها جنونهم ، اقبلت المصفحة الفرنسية تدب على دولابن مستطيلين وتحمل
على ظهرها ثلاثة مدافع رشاشة وبضعة جنود من السينغال يقودهم ضابط فرنسي
يشهر بيده مسدسا ..

ودخلت المصفحة بين الجموع الكثيفة غير عابئة بها ولا مكترثة لامرها
وراحت تدور حول الساحة متحدية تنشد الشر ..
وسمعت فتنة تقول :

ارأيت هم سبعة اشخاص يجابهون اكثر من خمسة آلاف ..
الا نستطيع تحطيم هذه المصفحة بالحجارة ؟ . لو كنا نريد ؟ ..
لم اجب ..

فلقد كنت في شغل عن ثرتها ، فان صورة الزوج الرهيبه و فوهات
المدافع الرشاشة كانت تشيع في نفسي الرعب ، وتهدم اعصابي ..
وداهمني شعور خفي بان الامر لا يمكن ان ينتهي دون كارثة والتفت الى
فتنة لا طلب اليها ان نعود الى البيت ، وشد ما كانت دهشتي حين لم اجد احداً
يجاني ..

وفجأة صك سمعي صوتها من بعيد ..
فالتفت نحو مصدر الصوت فالفيتها في ذلك الموقف الرهيب الذي لا اذكره

وغم تقادم الزمن ، الا واحس كأن شيئاً بارداً ينصب على جسدي ..
رأيتها تقف على بعد خطوات قليلة من المصفحة تمسك بيدها حجراً ضخماً
وترفعه بكل قوتها ، ولكأنها في ذلك ترد على التحدي بمثله ..
وجه شاحب ، وعيون متقدمة ، وشعر مضطرب ، ورداء ازرق ممزق ،
يكشف عن ظهرها وصدرها ، وغرة كستنائية تنوس على جبين ابيض كله
صرامة وعنفوان ..

لقد جرى كل شيء بسرعة خارقة ..
فما كدت اسمع صوت الحجر يصدح حديد المصفحة ، حتى دوت في اذني
مئات الطلقات ، وزوجة بصيحات الذعر وصرخات الالم ..
وضاعت العقول ..

وراح الناس يخبطون على غير هدى وبصيرة ، ويدوس بعضهم بعضاً في
فوضى مرعبة ، اما انا فلقد استطعت ان اجد الطريق الى بيتي ..
مررت بنساء شاحبات يرتجفن من شدة الجزع ، ويقفن في عرض الطريق
شبه عاريات ، يسألني بلهفة وذعر عن مصير رجالهن وابنائهن فلم اكثر لهن
ومضيت كالاصم ولما بلغت بيت فتنة وقفت كالمأخوذ انتظر من يسألني
عنها ...

ولم يكن غير الصمت يحسن السؤال ..
في صباح اليوم الثاني ، كنت انا وبضعة من اصدقائها الاطفال نشيعها الى
حيث ترقد ابا .
.. وهناك ..

ضمن حفرة صغيرة لاتحدها حجارة ، ولم تعمل فيها يد بناء رشقت بثوبها
الازرق الممزق المخضب بدمائها كما ترشق القطط ..
لم يغسلها احد ، ولم يكفنها احد ولم يصل عليها احد ، بيد ان قنابل
الفرنسيين التي كانت تقصف المدينة المجاهدة دون مراحة او هوادة كانت خير
تحية يمكن ان تحياها عظيمة مثلها ..

القارب

في مرج شاسع الارجاء سندسي الحضرة توشيه اشجار الحشائش بالاصفر والاحمر والابيض ، وفي كوخ مصنوع من اغصان الاشجار ، تظله مجموعة كثيفة من الصفصاف ، في هذا الموقع الشعري على ضفاف نهر العاصي كان يقطن صياد السمك (ابو فهد) وولده (سميح) الملقب بالنسناس . وهناك ، حذو الضفة ، كان يرى قارب صغير قد شد الى جذع شجرة هرمة من الزيزفون وكان هذا القارب العتيق جدا ، والمدهون بالقار كيلا تتسرب المياه الى داخله ، هو الشيء الوحيد الذي يملكه ابو فهد ، وثمره اتعابه خلال عشرين سنة امضاها في صيد الاسماك ، وكان حريصا عليه كل الحرص ، وقد حاول احد الصيادين ان يبتاعه منه ذات يوم فما افلح رغم الاغراء .. فلولا هذا القارب ما استطاع ابو فهد ان يصل الى اواسط النهر وان يطرح شبابه في الامكنة التي يكثر فيها السمك .

وكان ابو فهد شرس الطباع ، مشاكساً ، وغالباً ما كان يلجأ الى العنف في تسوية مشاكه مع الناس . وكان قوي الجسم ، مفتول العضل ، فارع الطول كشجرة من الحور ، وعلى الرغم من انه شارف الستين فهو ما برح يحتفظ بقواه كشاب في العشرين ، وانه ليستطيع ان يطرح شبكته في الماء مائة مرة متتالية دون ان يشعر بتعب . واما النسناس فكان نحيل

الجسم ، قصير القامة ، ذا شعر احمر ، يسترسل على جبينه و اذنيه ويغطي معظم وجهه ، وله انف افطس ، وعينان صغيرتان مدورتان كعيون القطط ، ولعل الذي لقبه بالنسناس لم يكن مخطئاً . ولكنه كان من الناحية الخلقية على العكس من ابيه فهو انسان مسالم يحب الهدوء والصمت ولا يلجأ الى العنف مها كانت الدوافع . وكان قد احب منذ مدة قريبة بنت البستاني الشيخ فتوح وهي فتاة صغيرة طائشة ، لاتبالي بارتكاب اقبح الحماقات في سبيل متعة بسيطة . وقد بادلته الحب لسبب تافه وهو انه كان يحملها في القارب احيانا في نزهة قصيرة بين البساتين ، وعندما رأت انه يرغب في الزواج منها ، شجعته على طلب يدها من ابيها ، ولكن الشيخ فتوح الرجل المادي النهم الذي لا يدع فرصة تسنح له دون ان يستغلها الى آخر حد ممكن ، قد اشترط عليه لقاء ذلك ان يعمل عنده كاجير (وقبل النسناس بهذا الشرط ولكنه استمهل الشيخ بضعة ايام ريثما يشاور اياه في الامر ، وها قد مضت عدة اسابيع دون ان يجرؤ النسناس على ذلك بيد انه قد اعتزم في هذا اليوم ان يمضي في التجربة مها كانت النتائج . فها هو يجلس في الكوخ ورأسه بين يديه ينظر قدوم ابيه من المدينة .

وكان الكوخ مليئاً باشياء كثيرة ، تتبعثر في كل مكان ويتراكم بعضها فوق بعض بلا ترتيب ، فثمة شباك من مختلف الانواع معلقة على الجدران ، وقصبات صيد ، وصنانير وخيوط ، وجزمات عتيقة ، وفانوس محطّم ، وصندوق خشبي مملوء بادوات الصيد وقطع الديناميت .

وكان النسناس في جلسته تلك اشبه مايكون بالنائم ولعله كان يحلم بالسعادة المنتظرة ..

وهل ألد من العيش مع الحبيبة في ذلك البستان الجميل ، الحافل بالاشجار والازهار ..

نعم ، ان حياته المقبلة ستكون هائلة سعيدة في ظل حنان تلك الزوجة وعطفها ..

صحيح انها سمراء ، اكثر من اللازم ، ولكن اللون الاسمر لا يعيب المرأة ، فكل الاغاني التي يسمعونها من اهواء الناس تطري الاسمر وتحبب فيه ..

آه ، ما اشد شوقه الى تلك الساعة ، ساعة لقاء الحبيبة ، والعيش معها ابدا ..

ولكن المشكلة مشكلة رضاء ابيه ، هذا الانسان الاناني الذي لا يفكر الا في نفسه ولا يكثر لعواطف الناس ولا يوليها اي اهتمام .. وسواء لديه اسعد الناس في حياته ام شقي فالمهم ان يمارس عمله في قيادة القارب عشر ساعات متواصلة في اليوم ..

ليت القارب يصبح قطعاً من الخشب للوقود ..

وبينما كان في مثل هذه الحواطر اذ صك سمعه صوت ابيه يشاجر (النور) الذين كانوا يضربون خيامهم قرب كوخه ، ويطلب اليهم الابتعاد عنه مسافة مائة متر على الاقل .

ودخل ابو فهد يترقص من الغضب فرمى بالسلة التي كان يحملها الى الارض وجعل يقذف (النور) بوابل من الشتائم والسباب ويتهمهم بسرقة فخاخه المنصوبة في مجرى النهر ..

و عندما هدأت ثورة غضبه بعض الشيء سأله النسناس بصوت خفيض كالهوس :

- اصحيح انهم سرقوا فخاخنا ؟

- كلام يسرقوها ، ولكنني اريد ان يرحلوا عني ، اني لا احب هذا النوع

من البشر لا اطيع رؤية الحشرات بالقرب مني ، فقال النسناس وهو مطرق الى الارض كالخجل .

كنت تستطيع يا ابي ان تطلب اليهم ان يرتحلوا عنك ، دون ان تتهمهم بالسرقة .

— انهم لصوص ، ولا بد ان يسرقوني ذات يوم ، وهل تظن ان بالامكان ابعادهم بلا ضجة ؟

وصمت لحظة ثم اردف ..

— قل لي لماذا تدافع عنهم ..

هل اعجبتك بنتهم (مياسة) يقولون ان لها رقصة ساحرة فهل رقصت لك .. ؟

— كلا كلا ، لم ترقص لي ولم ارقص لها وكل ما في الامر انها قدمت الي فنجانا من القهوة عندما زرتها صباح الامس ..

— الف لعنة تنصب على رأسك ورأسها ألا يخجلك ان تذهب لزيارة مثل هؤلاء الاوباش ..

تفه .. هيا اتبعني الى القارب واحمل معك الشبكة الصفراء ..

قالها وخرج متجهاً صوب النهر ، وعندما مر بالنور ، وكانوا يجلسون على باب الخيمة ، توقف ليصق على الارض تحرشاً بهم ، ولما لم يرد عليه احد ، واصل السير وهو يتمم ببعض الشتائم ..

ونفض النسناس ليجث عن الشبكة الصفراء ، وفيما هو ينقب ضمن الصندوق وقعت عينه على علبة الديناميت وفجأة التمع في رأسه خاطر رهيب .. فجمد في مكانه كأنما غرس في الارض التي يقف عليها ، ومضى وقت طويل وهو في حال من الذهول والاستغراق تستحوذ على كل شعوره ..

ولكنه عندما سمع صوت ابيه يناديه مستبظناً تلفت حوله حذراً كأنما

يخشى ان يراه احد ، ثم تناول قطعة من الديناميت فوضعها بجيبه ومشى نحو الباب ، فسمع صوت ابيه يناديه ثانية ففطن بالشبكة ، وتذكر انها معلقة على الشجرة خارج الكوخ فحملها بيده وامرغ نحو ابيه ..

كان الوقت قبيل الغروب وكانت اشعة الشمس الصفراء تكسو رؤوس اشجار الحور والصفصاف المنتشرة على ضفتي النهر بحلة ذهبية رائعة ، وكان الهدوء يشمل الطبيعة ويضفي عليها شيئاً من المهابة يوحي بالخشوع ، فلا نامة ولا حركة غير صوت مجدافي القارب يصفعان صفحة الماء برتابة وايقاع . وثمة سمكات تقفز على سطح النهر ، وضفادع تنقنق ، وشحروور يغرد ، وسلاحف تقبع على الضفة وتمد اعناقها بجمود كأنما يدهشها هذا العالم . وكان ابو فهد يقف في مقدمة القارب منتصباً كعملاق من عمالقة القرون الاولى في حين كان النسناس يجذف باعياء مقوس الظهر ، تبدو على وجهه مسحة من الكآبة .. ومرا بطريقهما ببستان الشيخ فتوح فجعل النسناس يدير عينيه في كل مكان كأنما يبحث عن شيء هام ، ولم يجب امله ، فقد رأى (زهرة) جالسة على الضفة وعلى يدها طائر صغير ابيض يرفرف بجناحيه طالباً المزيد من الطعام الذي كانت تقدمه له بفمها كما تفعل امه .. ولما رأته ابتسمت له ابتسامة حلوة تحمل الكثير من معاني الحب ؛ اما هو فلم يجرؤ على الابتسام خشية ان يلاحظ ابوه ذلك فيشك في امره .. ولكنه عندما بعد القارب قليلا تنهد تنهداً طويلاً وراح يفكر : ايكاشف اياه في موضوع زواجه ..؟ ومن يدري فلعله يوافق عليه فهو ابنه على كل حال ؛ ومهما قسا قلب الوالد فلا يخلو من الحب والرحمة ؛ ولكن هل يستطيع ابوه الاستغناء عن القارب ، كلا .. فلقد اعتاد ان يصطاد بواسطته ؛ وان امكانياته المادية لاتساعده على استئجار عامل يجذف بدلاً منه ..

اذن فأني فائدة من مكاشفته ..؟

الاجدى له ان يصمت ..

وضرب بالمجدافين وجه الماء بعنف وقوة فجنح القارب الى الضفة ، وكاد
يصطدم بالصخور. فصاح ابو فهد ..

اوه ... علام السرعة ؟ اوقف القارب ؛ فلن ابشر الصيد قبل طلوع
القمر .

ولبثا صامتين مدة طويلة ..

وعادت الى رأس النسناس فكرة مكاشفة ابيه ؛ ولكنه عـ اد فأمسك
مشفقاً على نفسه من صعوبة الرفض .

وقال ابو فهد :

— اعتقد ان ليلتنا ستكون موففة ، فسكون الرياح يبشر بالخير .

فلم يجب النسناس ؛ وظل سادراً ..

فأردف ابو فهد :

— لا اريد اكثر من بضعة كيلوات من السمك ؛ اني بئمنها ديناً علي

للشيخ فتوح .

وانتفض النسناس لدى سماعه اسم الشيخ فتوح ؛ وقفز قلبه ؛ كأنما هو

يجب الشيخ فتوح بالذات ..

وعندما ملك روعه سأل مستوحاً .

— أنت مدين للشيخ ..؟

— نعم ، فلقد اقترضت منه خمسين ليرة ؛ ابتعت بها علبة من

الديناميت .

فقال النسناس وقد سره ان يكون ابوه مديناً للشيخ :

— ان الشيخ فتوح رجل طيب . فأجاب ابو فهد بل هو رجل لعين و ما

كان ليقرضني شيئاً لو انني لم اضع حماري رهيناً عنده . فقال النسناس مفاجئاً :

— اتعرف يا ابي بتته زهرة ..؟

- اعرفها جيداً ، انها شبه عاهرة .. وهل تكون البنت الا كأماها ؟ .. انا اعرف امها يوم كنت شاباً . كانت تحبني وكنت احبها ؛ ولي معها مواقف لذيدة .

وصمت النسناس ؛ وانكمش في مكانه كأن برمبلا من الماء البارد قد صب على رأسه دفعة واحدة .

ومد يده الى جيبه فأحس ببرودة الديناميت ؛ فارتعش بشدة ؛ ثم رشق اياه بنظرة لئيمة وقال :

- لقد طلع القمر ؛ فلنباشر العمل . وامضيا ليلتهما في الصيد ، سائرين مع التيار الى مسافات بعيدة ، وكانت حصيلة تلك الليلة بضع سمكات لا تزيد قيمتها عن خمس ليرات .

ولما اشرفت الشمس عادا الى الكوخ ؛ وقد بدا النسناس اكثر نشاطاً من اللازم ؛ لقد نظف الكوخ ورتب حوائجه ؛ ونشر الشبكة تحت الشجرة ثم حمل السمكات الى السوق فباعها وعاد الى ابيه فأعطاه قيمتها ، وكان الاب مضطجعاً على الحصير يحاول النوم ، وعندما هم النسناس بمغادرة الكوخ سأله بصوت خشن :

- ألا ترغب في النوم ؟ ..

- سأنام خارج الكوخ في ظل الصفصافة . هل تريد شيئاً ؟ ..

- كلا ولكن اغلق الباب خلفك ..

ولم يبق النسناس كما زعم ؛ بل راح يتمشى قلقاً في المريج ، وبعد لأي عاد الى الكوخ ليتأكد من نوم ابيه ولما سمع غطيته تسلس متجهاً صوب القارب . لقد اعتزم ان ينسف القارب بالديناميت ؛ وليفعل ابوه ما يشاء ان يفعل ؛ فليس لديه من المال ما يكفي لشراء قارب جديد ..

ثم انه لن يموت من الجوع نتيجة لتحطيم القارب ؛ فسيارس الصيد على

الضفاف ككل الصيادين .

ووضع الفتيل في قلب الديناميت وشد عليه بقطعة من النسيج شداً محكما
ثم رشق القارب بنظرة حقد و كراهية ؛ واشعل سيجارة ..

- ماذا يقول ابي عندما يجد القارب محطماً ، انه سيتهم النور بكل تأكيد
وتتمهي المشكلة عند هذا الحد . قالها وهو يضع رأس السيجارة المشتعل على
فتيل الديناميت ..

واشعل الفتيل بسرعة ..

وفي لحظة قصيرة ، لحظة تنازع بين الضمير والنفس ، لحظة تردد لا تكاد
تذكر ، انفجر الديناميت في يده ، قبل ان يقذف به الى القارب ؟ واندفع
النسناس يجري بلا وعي في كل اتجاه ويصرخ كالمجنون : اين يدي ؟ ..

ومن بين عشرات الحواطر العاطفية السامية النبيلة التي تعاقبت مزدحمة في
رأس الاب وهو يقود ولده باحثاً عن سيارة تنقله الى المستشفى برز خاطر
بليد ؛ جامد ، خاطر معنوي جاف ، لا اثر للانسانية فيه ، وهو ان النسناس لم
يعد يصلح لقيادة القارب ..

ومات النسناس متأثراً بجراحه ..

وظل القارب يتأرجح على سطح النهر ، مشدوداً الى جذع شجرة الزيزفون
الهرمة طويلاً .

ثم جاء اليوم الذي تحطم فيه من تلقاء ذاته ، واصبح قطعاً من الخشب
للقود .

أرضيني عشر ليراس

أكره ما أكره ان اجلس في القهوة .. وما اذكر اني كل حياتي استطعت
ان امكث بن ضجيج الناس وقرقرة النراجيل وطققة النرد ساعة
واحدة ..

يقولون ان القهاوي قد استنزمتها ضرورة الاجتماع وانها المكان الوحيد
للمتعة والتسلية والترفيه عن النفس ؛ ولا ادري اي لون من المتعة يمكن ان
يوجد في تلك المستودعات البشرية المشبعة برائحة الفحيم وعرق الابدان ..
على اني اضطرت ذات يوم ان امضي السهرة في القهوة المجاورة لمنزلي ،
فلقد اذعت مفتاح البيت ، وكانت زوجتي خارج المنزل في حفلة زفاف احدي
صديقاتها ، ولم يتيسر لي الاتصال بها ، وكان من غير المتوقع ان تعود قبل
منتصف الليل .. وجلست في ركن منعزل ، وراء طاولة خشبية تلتصق باحد
الاعمدة الضخمة التي تحمل سقف البناء القديم ، ورحت امضي الوقت بارتشاف
الشاي ؛ وانقل نظراتي الجوفاء الفارغة في الوجوه الكثيرة المحيطة بي وكانت
تبدو من خلال الدخان الكثيف مضطربة باهتة ، كصورة في حلم كونها نحلة
رجل سكران ..

وكانت هذه الوجوه تصدمني احيانا بابتسامة جافة ؛ او بهزة رأس خفيفة ،

و كنت استعمل في الرد على هذه الابتسامات والنحيات الطريقة الآلية ذاتها فأهتز رأسي او ابتسم ..

وكان يضحكني ما آخذ به نفسي من هذا التكلف البارد الذي تقضيه المجاملة و يفرضه النفاق و الذي لا يعبر اطلاقاً عن اي شيء من الصداقة والحب ..

ولفت نظري في هذه الزحمة ، رجل يشارف الاربعين رث الثياب ، خامر الجسم ، شاحب اللون يحمل رأسه بين يديه ويديم النظر الي بشكل وقع وكأنه يريد ان يجعلني اشعر بوجوده .

وتشاغلت عنه بعض الوقت و لما عدت للنظر اليه الفيتسه في وضعه الاول يحدق في وجهي تحديقاً مر كزاً لا انقطاع فيه ..

وضابقتني ان اصبح موضوعاً لتأملات هذا الرجل الغريب الذي لا اعرف عنه اي شيء ، فعمدت الى التشاغل عنه ثانية بتقليب صفحات احدى المجلات « ولشد ما كانت دهشتي حين سمعت خادم القهوة يقول لي :

— هنالك رجل ياسيدي يرجو ان تسمح له بالجلوس معك . فسألته :

— ومن هو هذا الرجل ؟.

فأجاب هذا الذي يجلس حذو الراديو ..

ثم اقترب مني وهمس في اذني

— اني احذرك منه فهو من اكبر المحتملين في هذا البلد ، والناس يلقبونه

(اقرضني عشر ايرات) ..

ونظرت الى حيث اشار الخادم فاذا بي ارى الرجل ذاته صاحب التحديق

الوقع ..

ولما وقع نظره في نظري اطلق في وجهي ابتسامة ناعمة ..

ولم يعد من الممكن بعد هذه الابتسامة رفض طلبه ، فقلت للخادم ! قل
الله انني ارحب به ..

وشعرت آتئذ شعور من يجد نفسه امام خطر مفاجيء ..
وحررت في ايجاد وسيلة اتخلص بها من هذا المحتال ، ولم تطل حيرتي فلقد
جاء الرجل .

وجلس حذوي بعد ان حياني بكلمات خرجت من فمه مضطربة غير
مفهومة ..

وكان شديد الارتباك لا يدري مايفعل . ولم يكن من السهل عليه فيما
يبدو ان يضبط اعصابه . فلقد امضي وقتاً غير قصير وهو يحاول ان يجعل
نفسه في وضع طبيعي ..

وكان في موقفه هذا يشبه اولئك الفنانين الهواة من المغنين حين تضطربهم
ظروف خاصة للوقوف وراء الميكروفون وتقديم اول اغنية للجماهير وهم
لا يدرون بعد مدى تقبل الجماهير لغنائهم ..

وفي الحق لقد كان مظهره الخارجي لاينم اطلاقاً عن الشر الذي تخيلته
فيه ، ففي جبهته الواسعة ، وشعره الكث الملتف حول اذنيه وعيونه الرمادية
المهادئة ، مايوحي بانه انسان طيب ، وليس كما وصفه خادم القهوة ..
وسمعتة يقول بلهجة حارة مشبعة بالصدق .

- الا ترى معي ياسيدي ان من اصعب الامور على الانسان ان يبدأ
الحديث مع شخص لا تربطه به معرفة سابقة ..

انك ستقول بالطبع انني لم اجيء اليك الا وفي نفسي شيء ارغب في
اطلاعتك عليه ، او حاجة اريد تحقيقها بواسطتك .. وهذا صحيح ، فانا لم
اطلب مقابلتك ، لمجرد التسلية وتمضية الوقت .

لاتبتسم ياسيدي ..

ما اظنك تعرف عني ما يبيح لك ان تسخر مني .. و لا اعتقد ان
ما همس به الخادم في اذنك يمكنه ان يعطيك فكرة صحيحة عن هذا الانسان
الجالس امامك ..

يقولون انني محتمل ، ويلقبوني بـ (اقرضني عشر ليرات) هذا ما يعرفونه
عني ، ولكن ليس هذا كل شخصيتي التي عاشت اربعين عاما في جو كله صخب
وضجيج ..

و انا احب الآن ان اعرض عليك بعض جوانب هذه الشخصية بما
لا يعرفه احد .. فهناك قصة اريد ان اقصها عليك ولا علاقة لهذه القصة
بمشاكلي الزمنية .. وانه لمن المشين فيما ارى ان ألبأ الى اقدس ما في نفسي من
الذكريات فاجعلها وسيلة للشجادة واستدرار العطف ، فهل تصدقني ؟

هل تؤمن بما اقول ؟

فقلت باهجة جافة :

— لقد صدقت ، فهات قصتك .

وبدا يروي قصته بأسلوب انيق ولهجة موسيقية ، وقد بدا مر بدم الوجه ،
كأن سحابة من ماضيه الشقي المؤلم تلقي على وجهه ظلها الاسود الكئيب ..
— كان لي بيت صغير يشرف على البساتين ، انشأته بما اذخرت خلال
سنوات طويلة ، وكانت لي صديقة حسناء تشيع في هذا البيت الرضا والحب
وتضفي عليه من سحرها ما يجعله كقطعة من جنة ..

و كنت احب هذه الصديقة التي يتجمع في كيانها الجميل عوامل الصغبر
بكل آماله واحلامه التافهة الجميلة ..

وعشت معها ثلاث سنوات كأجمل ما يكون العيش ..

ولم يكن يحظر في بالي وانا في غمرة من السعادة تستحوذ كل شعوري

ان ثمة شيئاً مظاهراً رهيباً يتسلل الى جسم صديقتي الغض في بطاء وحشي
لينفت فيه سمومه الصفراء

وكانت الضربة الاولى ، وحماتها الى احد المستشفيات وانا لا ادري بعد
خطورة المرض الذي اصابها وهناك اعلمني الطبيب انها مطابة بسرطان الدم
ولا امل في شفائها ، ولكن من الممكن معالجتها لتعيش ستة اشهر فقط بلا
ألم ، وهذا يكلفني غالياً ...

واذعنت لحكم القدر ، ورضيت بالمصيبة ، وطلبت من الطبيب ان
يعالجها بغض النظر عما تكلف المعالجة ...

وبعد بضعة اسابيع عدت بها الى البيت وقد زالت عنها جميع اعراض المرض
وسألتني ونحن في طريق عودتنا عن نوع مرضها :

فقلت لها انه نوع من الروماتيزم وانها شفيت منه تماماً ...

ورأيت ان من الحكمة ان ابتسم زيادة في طمأننتها فجاءت ابتسامتي جامدة
مفلوجة كالا ابتسامته التي ترسم على وجه الاموات ...

لقد تركت لها الامل لتعيش ، ايامها الباقية القليلة ، فكان ان استأنفت
حياتها سعيدة طرودة تنظر الى المستقبل بروح متفائلة وما اكثر ما كانت تحدثني
عن مشاريعها البيتية الصغيرة وعما تتموي ان تفعل في قابل ايامها ...

و كنت احاول ما يمكن ان اتجنب الحديث عن المستقبل الذي لم يعد له
وجود في حياتنا المشتركة ...

ولشد ما كان يؤلمني ذلك ، ولكن ما عسى ان افعل ، غير ان الود بالصبور ،
واكتم البكاء الذي كان يراود عيني عند كل كلمة توميء بها الى مستقبلنا ...

وليت الامر وقف معي عند هذا الحد ، ليتني استطعت الملائمة بين عالمي
الحيالي وعالمي الحسي فأنجو من التناقض ، فلقد كنت أعيش موزعاً بين الخيال
الذي يستطيع ان يعبر الغد ويتخطى حدود الزمن ويريني تدرج الأشياء الا

بواقعها الآتي . . .

فأنا عندما كنت المسس يدها كنت احس بأنني المسس يد المرأة التي احبها ،
ولكن لم يكن ليحول ذلك دون خيالي الذي كان يصور لي هذه اليد وكأنها
قطعة من جثة . . .

ويا لله ما كان أفضح ان تتحول رائحة فمها الطيبة العطرية في انفي الى رائحة
نتنة مشبعة بالكافور والموت . . .

قالت لي ذات مرة وكانت منهمكة في زراعة بعض انواع الزهور في حديقة البيت .
- سيكون لدينا بعد بضعة اشهر مجموعة من الازهار لا مثيل في العالم . . .
فابتسمت في وجهها ابتسامة مرة ولم اعلق على قولها بشيء ولكنني قلت
في نفسي :

- ان هذه الازهار التي تزرعها الآن ، ليست لك ، بل للقبر الذي يفغر
فاه منتظراً ان يتلقف جسدك الجميل . . .

مسكينة انت يا صغيرتي . . .

لو تعلمين الحقيقة ، لدست بقدمك على هذه الازهار واقمت على هشيمها
المأتم الذي يليق بمثل هذا الجمال وهذه السن . . .
ومضت الاشهر الستة ، وعاد المرض صديقتي بصورة اشد واعنف ،
فحملتها الى المستشفى ثانية ، حملتها لأعالجها حتى آخر لحظة . . .
يقولون لافائدة من المعالجة ولا جدوى في الانفاق . . .
لأمل ، لارجاء . . .

كلهم يقولون ذلك ، حتى الاطباء . . .

بالقساة . . .

اينسون ان هنالك شيئاً اسمه ضمير ، وانني لا استطيع ان اواجهه بعد
موتها وفي جيبي قرش واحد . . .

لقد بعث كل ما املك ، حتى الفراش الذي انام عليه لاشتري لها الدم الذي
لا يشفيها بل يطيل حياتها بضعة اسابيع . . .

وماتت اخيراً . . .

وارتاح ذلك الجسد الضئيل من تلك الآلام الحادة القاسية التي لم يعد يخففها
المورفين . . .

وحملت الى مقرها الاخير تزينها الازهار التي زرعتها بيديها الناعمتين ،
وسقتها بدموع افراحها المرتقبة ، وغذتها بالاماني العذاب . . .

وبقيت وحدي امام القبر الذي وضعت فيه كل حياتي ، فبكيت وبكيت
اصباحاً واماسي ، اشهرأ طويلة . . .

ولكن الحياة ، الحياة التي لاتعبأ بالموت ، ولا تألف البكاء ، ايقظتني على
صوت البقاء ، يردد انشودته المتفائلة الضاحكة . . .

فاذغمت لارادة الحياة ، ورحت ابحت عن كسب شريف ارمم به
ماتهدم من حياتي . . .

ومضت شهور كثيرة ولم اجد العمل . . .

فمددت يدي للناس اقترض منهم لاعيش هذا العيش الذي تراه . . .

انهم يسخرون مني ويلقبوني (اقرضني عشر ليرات) . . .

لايهم ، فأنا لاشحد ، ولكني اقترض . . .

هذه هي قصتي ياسيدي . . .

وان شئت الان ان تقرضني عشر ليرات فلن انسى لك هذا الفضل ما عشت .

ولم استطع ان امد يدي الى جيبي واعطيه ما طلب وفجأة دوت في اذني

عاصفة قوية من الضحك فالتفت حولي ، فاذا بالمقهبي كله يضحك ساخراً مني . . .

واخجلني ذلك فأغمضت عيني ، ولما فتحتها ثانية ، لم اجد الرجل امامي ،

ولكن لمحت قفاه وهو يخرج مسرعاً من القهوة كأنما يلاحقه عدو مخيف . . .

وسمعت الخادم يقول لي :

— ألم احذرك منه ، ولكن يبدو ان قصته قد اثرت في نفسك ، هذه القصة التي يرويها لكل الناس لقاء عشر ليرات ، ولقد كنت انا ايضاً ممن شملهم سوء الطالع فاستمعوا اليها ذات يوم . . .

ومرت السنون ونسيت الحادث نسياناً تاماً . . .
وذات مساء بينما كنت عائداً الى البيت بعد انتهاء عملي في الوظيفة استوقفني في الطريق رجل يشارف الخمسين من عمره ، انيق اللباس ، اشيب الشعر ، يضع على عينيه نظارتين سوداوين وقال لي مبتسماً :

— اما عرفتي ؟ . . .

فاجبت بالنفي فقال :

— حسناً . الا تعرف عشر ليراتك .

وناولني عشر ليرات فتذكرت به عندئذ وسألته وانا في اشد الدهشة :
— اهو انت ؟!

فقال وهو ينظر الي بسرور كأنما ارتاح للقائي . . .
— نعم انا : . . . ويحق لك ان تدهش لهذا اللقاء الذي لم تكن تنتظره . . .
وذكرت قصته فسألته :

اخبرني بالله هل كانت قصتك حقيقية . . .
فأجاب دون اهتمام :

وما يعنيك من امرها . . . انها قصة . . . قصة من الحياة ، ولا يهم ان اكون انا بطلها بالذات ؟ . ولكن المهم ان تؤثر فيك وتحفزك الى عمل الخير . . .
اريد ان اعلمك اني استطعت ان اجد طريقتي بعد ذلك التعثر الطويل ، وان ابني كياني — الاجتماعي مرة اخرى وان اعيد للناس كل ما اقترضت منهم ولكنني لم استطع مع الاسف الشديد ان استرد منهم اسمي الحقيقي . . .

انهم مازالوا حتى الآن يسمونني (اقرضني عشر ليرات) .
فسألته :

وما اسمك ياسيدي .

فضحك وقال :

اقرضني عشر ليرات . .

فقلت له

— طيب ، الا تريد ان تعرف اسمي .

فأجاب بلهجة جدية وهو يشد على يدي مودعاً :

— لقد عاملتني فيما مضى بالاحترام الذي يليق بي كانسان دون ان تعرف

اسمي . . . وانا منذ ذلك اللقاء قد عرفتك جيداً ، ولم تعد ثم حاجة لمعرفة

الحروف التي يتشكل منها اسمي واسمك .

مع الحياة

امضى (صديقي الموظف في احدى الدوائر الحكومية ، اربعين عاماً
من حياته ، دون ان يعاشر امرأة او يعرض نفسه على طبيب . .

وكانت عداوته للنساء والاطباء معاً قديمة العهد ، مجهولة السبب . . .

وكان الناس يعزون ذلك لاسباب شتى ، غير ان الاقرب الى الحقيقة ، هو
ان (صديقي) قد عاش متأثراً بجوارحه ، كان لتلك الاسرة القديمة المحافظة ،
المقام الاول ضمن حلقات المتزمتين من شيوخ المدينة . . .

وما اكثر ما كان يقول لخادمه العجوز (الحاج عبد المعطي) :

لا تفتح باب بيتي لامرأة قط ولو كانت امي . .

ولا لطبيب ولو رأيتني اموت . .

وحدث مرة ان جاءت اخته لزيارته في بيته ، فأبقاها (الحاج) على الباب ،

حتى اتى سيده ظهراً فأدخلها بيده ! . .

وانه لمن المدهش ان نعلم ، انه منذ مدة طويلة وهو يعاني آلام قرحة شديدة
في معدته ، دون ان يكثرت لها ، او يهتم بمعالجتها مع انها قد بلغت حداً من

الخطورة بات يخشى معه ان تقضي على حياته . . .

وأخيراً . .

اي عندما اصيب بنوبة حادة افقدته الوعي ، نقله جماعة من اصدقائه الى
أحد المستشفيات ، وكانت هذه الجماعة (المغامرة) لاتسأل الله له الشفاء ، ولكنها

تسأله ان يلهمه الصبر على ما يكره ! . .

وها هو يحتل - رغم أنفه - غرفة انيقة في ذلك المستشفى الفخم، وتقوم
على خدمته - رغم أنفه أيضاً - ممرضة مرحة، تعرف ما يرضي الرجال ويمتعهم...
ولم يمض على دخوله المستشفى بضعة ايام حتى الف صدقي النساء كما الف
الاطباء... .

• ووجد لحياته معنى آخر ، يفيض جمالاً ومتعة •
• واسف الاربعين كيف انقضت عجباء مقحوظة •

وكان لغرفته باب داخلي يوصل الى غرفة ثانية تحتجزها امرأة حسناء، تسمى
(سارية) وكان يراها احياناً تمر بالباب في طريقها الى قسم المعالجة . وقد
استطاعت ببضع نظرات (مرنة) مع الابتسام ان تمتلك قلبه ، وتلهب عواطفه ،
وتجعله يندفع في حبها كشاب في العشرين • •

و كثيراً ما كان يستيقظ ليلاً على صراخها وانينها ، فيألم لها اشد الألم ،
ويتمنى لو يتاح له الدخول الى غرفتها ، والسهر على راحتها كل الليل ! • •
وخطر له مرة ان يستأذنها لعلها تسمح له ، ولكنه خشي ان تسيء الظن به
فأقلع عن ذلك • •

وحدث ان ارق ذات ليلة ، دون ما سبب ، فمعدته الوجيعة خالية من
الغازات والمخوضه ، واعصابه مرتاحة هادئة وجارته الحبيبة تغط في نوم عميق
بفضل المورفين • والهدوء يشمل جميع ارجاء المستشفى فلا نائمة ولا صرخة
ولا آهة • •

وأحب ان يعالج ارقه بما اعتاد من وسائله الخاصة ، فهو وان كان قد الف
الاطباء ، الا انه ما برح سيء الظن بهم فتناول من درج الحزانة قصة لطفه حسين
وطفق يقرأ • •

ومع اسلوب طه حسين كما جرب غير مرة يحمل كمية وافرة من (برمور
الصوديوم) لم يشعر في اي رغبة في النوم • • •
كذلك لم يفده شيئاً غسل راسه بالماء البارد • •

ولا المضي في تهجية كلمة (تشيكوسلوفاكيا) طرداً وعكساً عشرات
المرات . . .

ولا الايجاء ايضاً فلقد ظل يقول (يجب ان انام) اكثر من مائة مرة ،
ورغم ذلك فقد بقيت عيونه مفتوحة كعيون السمك . . .

وبينما كان يتقلب في فراشه ، على كل وجه ، بالطول والعرض ، بكل وضع
ممكناً . . . ذكر فجأة انه قرأ في احدى المجلات ، ان اغلب الذين يموتون
فجأة يعانون ، قبل لحظاتهم الاخيرة ، حالات من التيقظ والانتباه قد تكون الى
حد بعيد بمثابة حالته الراهنة . . . ولم يكذب ذلك ، حتى اصفر وجهه
واضطرب قلبه ، واجتاحت كيانه رعشة قوية ، اعقبها شبه شلل في جميع اطرافه . . .
آه . . .

الم يكن محقاً عندما كان لا يؤمن بتدجيل الاطباء . .
فهاهو يموت هنا . .

ومعنى هنا انه يموت بين الاطباء والممرضات ، ومخابر التحليل ،
ومستودعات الادوية ، بل وامسحة رونتجن ايضاً ! .

واعبت المصادفة دورها آنئذ فاختلفت احدى عضلات صدره مكان القلب
تماماً ، فهب من سريره كالمجنون ، وقد امتلأ ذعراً ، واندفع نحو الباب ،
فاصطدم بالطاولة فوق على الارض ويبدو ان جاراته الحسنة « مارية » قد
استيقظت على صوت الوقعة . .

فهاهو يسمع صوت جرسها يرن مرات عديدة متتالية دون توقف . .
ثم يتأدى اليه صوت طقطقة سريره ، فحفيف ثوبها ، فوق اقدامها على
الباب الداخلي . . .

فصوت المفتاح يدار في القفل . . .

وما هي الا لحظات قصيرة حتى رآها فوق راسه توجه اليه الاسئلة التالية :

— هل حدث شيء هام ؟ . .

— اتريد مساعدة ؟ . .

— قل ما قصتك ؟ . .

ولما لم يجب هرولت نحو الباب لتستدعي الدكتور ، ولكنها توقفت فجأة
عندما سمعته يقول :

— تريثي فالحالة لا تستدعي تعكير جو المستشفى في مثل هذه الساعة
المتأخرة من الليل . . . ثم نهض واقفا يسرح شعره بيديه ويصلح من وضع
أرديته . واقتربت منه مبتسمة وقالت :

— ا كنت تمثل ؟ . .

— كلا ، ولكنني كنت احاول التخلص من كابوس مريع
واطلقت ضحكة ذات رنين فضي وقالت :

— وما يخيفك من الكابوس ؟ انه صديق حميم لجميع المصابين في المعدة . .

— اعندك لومينال ؟ . .

— كلا وما هو اللومينال ؟ . .

— نوع المنوم .

— كلا ليس عندي من انواع المنومات سوى (تشيكوسلوفيا كيا) و
(الدكتور طه حسين) و (يجب ان انام) ورفعت حاجبها مستوضحة فقال :

— لا تهتمي كثيرا بادويتي ، فهي ليست بذات فائدة تذكر ، وان كان

لديك شيئا من (اللومينال) فهاتي منه ، فهو اجدى وانفع . . .

واستدارت برشاقة وخفة وخرجت ، ثم عادت بعد لحظة فقدمت اليه

الدواء ، وبعد ان تناوله سألها :

— أنت مقروحة مثلي ؟ . .

— نعم .

— وبماذا تشعرين ؟ . .

— بما تشعر به انت . تقلص في المعدة . حموضة ، انقباض في الصدر ، نوبات

عصبية مصحوبة بضربات شاذة في القلب ، وخزات مؤلمة في الجانب الايمن من

البطن ، تحت الاضلاع تماما ، ثم . . . وتوقفت هنيئة وقالت :

— لماذا تسألني ؟ .. اصرت طبيياً ؟ ..

— لا، ولكنني اريد ان اعرف احتياجاتي الى عملية ام لا ؟

— ان أطبائي لم يتوصلوا بعد الى هذه النتيجة التي تريد ان تتوصل اليها بمجرد

السؤال عن اعراض المرض .. الحقيقة ان كل المرضى يخالطهم شبه شعور بانهم
يدر كون امراضهم اكثر مما يدركها اطباؤهم بالامس اخبرني الدكتور ان لديه
مريضة تحسب انها مصابة في قلبها ، ولم يستطع اقناعها بانها مصابة في كبدها ،
رغم أنه قد اطلعها على كل النتائج التي تثبتت لديه بالفحص على الاشعة وبالوسائل
الفنية الاخرى ، بما لا يمكن ان يداخلها خطأ .

لاتؤاخذني ، لقد درجت على ان اكون صريحة . وها اني اوجه اليك

السؤال ذاته :

— بماذا تشعر انت ؟

فضحك وقال :

— اما انا فمجموعة من الحرائب الجسدية لايرجى لها ترميم ، يقولون انهم قد

يضطرون الى رقع معدتي بقطعة من معدة كلب .. شيء مقرف جداً ..
فانا لا استطيع ان اتصور ان الدم الذي سيجري في عروقي سيكون من

انتاج احشاء الكلاب ..

وصمت لحظة ثم سألها :

— كم ساعة يدوم تأثير المنوم ؟

— اربع ساعات تقريباً يا صديقي افندي ..

ودهش اد سمعها تخاطبه باسمه وقال :

— كيف عرفت اسمي ؟

— يبدو انك لانهم كثيراً يجاراتك ..

— لم افهم ؟

— الا تعرف انني جارتك التي لا يفصلها عن بيتك سوى حائط قصير ..

— هذا غريب ، ما اسم اسرتك ؟

— وهل يعنك هذا ..

- نعم انه يعني . . . او لقد اصبح الآن يعني . . .
ويبدو انه احب ان يعلم اهي متزوجة ام لا فسألها :
– اكانت اصابتك في المعدة قبل الزواج ام بعده . . . ؟
وفهمت ما يريد فرمقته بنظرة طويلة واجابت :
– انا الان ارملة . . .
والتمعت عينه سروراً وقال :
– كيف يعقل ان تكوني ارملة وانت في هذه السن ؟ . اظنك تزوجين .
– ولماذا امزح ؟ . . . لقد ارغمت على الزواج من رجل في الستين ،
وشاءت الاقدار ان يموت قبل انقضاء شهر العسل .
– اكان الرجل ثريا ؟ . . .
– كلا ، ولكنه كان صديق ابي . وساد الصمت لحظة ، ثم قال صديقي :
– الحقيقة اني كنت احمق . . . ويلوح لي انه اصبح من العسير علي اصلاح
عالمه من حياتي . . .
فماذا بعد الاربعين ؟ . . .
– الا ينجلك ان تقول انك في الاربعين ؟ . . .
– كلا ، لن ينجلني ان اقول ذلك ، لانني لم اعد اطمع بالحب . وهمت
بالاتصاف فقال لها :
– الى اين ؟ . . .
الليل طويل ، وكلانا يحتاج الى ما يبعده عن جو آلامه . . .
فقالت وعينها الى الباب . . .
– لا يليق بنا ان نجتمع هكذا ، فقد يفاجئنا احد . . .
– وهل تخافين الناس ؟ . . .
– لا اخاف احداً ، ولكن الذي اخافه ان يسيء ذلك الى سمعتك ،
ويذهب عنك وقارك ، وما اكنسبته من شهرة خاصة اضعت في سبيلها شبابيك . . .
وضحكت ثم اردفت :
– هانت ترى انني اعرف كل شيء عنك في حين انك فيما اظن لا تعرف اسمي . . .

— ظلمتني ، فاسمك سارية • •

— التفات عظيم • •

واسترسلا معاً في ضحك طويل ثم قال صدقي :

— لم اشعر قط بنشوة الصحة تغمر كياني كما اشعر بها الان ، الحقيقة ان

الحياة معك شيء جميل • •

— اوه • • لقد بدأت تجامل ، فلانصرف ومدت اليه يدها مودعة • ولما

احس طراوة تلك اليد البيضاء تنهد ارتياحاً ، واكنه سرعان ما فطن الى انها

قد تسيء الظن به ، فوضع يده على معدته وتنهد ثانية ، وحين مشت نحو الباب

متواخية ، كان لتنهده الثالثة معنى ثالث ! •

استيقظ صدقي في الصباح على صوت ممرضته التي جاءت تقدم اليه (وجبة)

الادوية الصباحية • ولما انتهت من عملها قالت له :

— يمنع الاكل اعتباراً من اليوم حتي اشعار آخر •

فحملق بوجهها مستوضحاً فقالت :

— هذه اوامر الدكتور • ومعنى ذلك ، انه قد تقرر ان تجرى لك العملية

صباح الغد •

— اوه • لقد دنت ساعتي •

وضحكت لقوله فحدجها بنظرة قاسية وقال :

— افى هذا ما يضحك ؟ •

— كلا ، ولكنك انت الذي اضحككتني •

— اكنت تنتظرين ان اصفق ابتهاجاً بدنو اجلي •

وضحكت ثانية فصرخ :

— يكفي وقاحة ، اذكري انك امام رجل على ابواب الموت • تظاهري

بالتأثر على الاقل •

وعلام السرعة ؟ فعندما تموت ستجدني اكثر حزناً وتأثراً مما كنت تظن •

— عندما اموت : ! • اخبريني • • • أنت ممرضة ام جلادة • • •

— لأدري .

— اهكذا تجيبين ؟ .

— اوه . حيرتنا ، بماذا تريد ان نجيب اذن ؟ . لقد مات عندنا بالامس

شاب جميل ، فأبكاني موته اكثر من خمس دقائق .

— خمس دقائق ! : . وقت طويل .

— الحياة اثن من ان نضعها في البكاء على من يموتون قبلنا .

ونظر الى صدرها الذي كانت تخرج به سعلة خفيفة وقال في نفسه :

لماذا هذا الصدر يخيل الي انني لم افقد شبابي بعد . ولكن اليس من حماقة

والغباء ان اعرض نفسي للموت املا بالشفاء . الا يستطيع ان تحمل آلام

مرضي حتى نهاية العمر ؟ فعلام اغامر ؟ ثم قال للمرضة :

— اعطني قلماً وورقة .

— كما تأمر ، ولكن لاتنسى ان تذكرني ! .

— واين تريد ان اذكرك ؟ .

— في الوصية .

قالتها وهي تسرع نحو الباب كأنها تخشى ان يركلها بقدمه ، فقال بينه وبين

نفسه ! انا الذي شجعها على مثل هذه الاقوال . لعن الله تلك القبلة ! .

وسمعتها تقول :

— لا تخف ، فان الدكتور يؤكّد ان الخطر على حياتك لا يزيد على خمسين بالمائة .

وهذا يعني انك الآن

وصحمت فقال :

— نصف ميت . . .

— انت الذي قالها .

وهزت كتفها غير مبالية ، وخرجت . وكانت حركاتها رشيقة مثيرة ،

فهمس متحسراً :

— من المؤسف ان يموت المرء قبل ان يتزوج .

وعادت المريضة تحمل اليه القلم والورق وهي تقول :

- خبر جديد . لقد علمت ان عملية جارتك الست ستكون عقب عمليتك مباشرة .
وصمت صديقي ولم يجب ، ولكن تقطية عميقة اخذت مكانها بين حاجبيه .
وبعد فترة قال لها :

= هل استطيع الاعتماد عليك في امر هام .
- ولم لا

- طيب ، ضعبي القلم والورقة على الطاولة واخرجي حالا .
- اهذا كل شيء ؟ .

ولم تنتظر جوابه ، بل هزت رأسها باستخفاف وخرجت . بينما اخذ هو
مكانه وراء الطاولة وشرع يكتب .

وقف صديقي وراء الباب الداخلي وعينه في ثقب القفل ، ويده حول اذنه ،
فراآى ممرضة تقدم لسارية رسالته فجعل يراقب الانفعالات والتأثرات التي
تنطبع على وجهها وهي تتلو سطوره المحمومة . وسمعها تقول للممرضة بعد ان
امت قراءة الرسالة (بلغيه تحياتي وقولي له انني سأستقبله في الساعة العاشرة مساء)
وعندما عادت الممرضة لتتقل اليه ما سمعت وجدته جالسا على طرف السرير ويده
على معدته فقالت له :

- الاخبار سارة . لقد اذنت لك بمقابلتها وموعدك الساعة العاشرة مساء .
اتزيد شيئاً ، فانا الان مشغولة .

فابتسم ولم يجب وما ان اغلقت الباب ورائها حتى نهض مسرعا فارتدى
البسته . . . وبعد بضع دقائق ، كان يحث الخطو في طريقه الى بيته ! .

وامضى نهاوه مع خادمه العجوز (الحاج عبد المعطي) الذي استقبله بشوق
ولهفة ، كما يستقبل الاب ولده الوحيد بعد غياب طويل . وراح صديقي يقص
عليه ماجرى له في المستشفى ، وكيف تعرف على جارتها الست سارية ، ثم كيف
طلب الزواج منها فلم تمنع ، رغم شروطه القاسية . وختم حديثه قائلا :

- ولكنني يا حاج ، قد وجدت ان اعصابي المهذمة لن تساعدني على اجراء
عمليتين في يوم واحد ، فاثرت الفرار على البقاء ، تاركا ورائي طبيباً يشهد
السكين ويهيء الادوات وامرأة تطلي وجهها بالعالى والنفيس من انواع الاصباغ .

وكان «الحاج» يصغي اليه بانتباه شديد وكان ينسى ان يحمد الله بين آن
] وآن على نجاته سيده من كيد الاطباء والنساء ! •

وعندما جاء المساء ودخل (الحاج) ليفتقد سيده في فراشه ، لم يجد احداً
في الغرفة • •

وسهر الليل كله في انتظاره فلم يعد .

وحدث بعد مضي شهر تقريباً ان استيقظ ليصلي الصبح في وقته كما هي
العادة ، فأدهشه ان يرى غرفة سيده مضاءة ، فاقرب منها ليتبين الخبر
فلمح من خلال ستائرهما سيده صديقي مع امرأة حسناء في وضع غير محمود !
ووضع يده على راسه ، كأنما اصيب بصدمة عنيفة ، ثم غادر مكانه
مسرعاً وهو يلعن الشيطان •

ولكن تلك الصورة « المؤذية » قد ظلت منطبعة في خياله مدة طويلة
ولعلها هي التي دفعته في النهاية ، رغم عجزه وشيخوخته ، الى البحث عن
امرأة لها من الوسامة والاشراق ما لسيدته (سارية) ذات الجسم الابيض اللذيذ • •

قبورتك زلور

• • نعم

انه لمن المستحيل علي ، مهها حاولت التناسي ، ان تجرد من تلك النفحة
الحارة الحلوة ، التي خالطت روحي رديحاً من الزمن فتركت فيها اعتمق
الاثر ، وجعلت حياتي كلها كصورة تمثل حالة زمنية جامدة لا تقبل التبدل .
لتذهب الايام في اثر الايام ، لتأكل السنون السنين ، ليلتهم الفناء كل

شيء • • •

فمادمت اعيش وافكر واذكر فسيظل لصديقتي الغالية (ش) مكانها

في قلبي • •

هاانا الان في بلدها • •

في فندق (اللقاء الاول) كما شاءت آتئذ ان تسميه ، بين طيوف
الماضي ، وبوارق الذكريات وتنهيدات الزمن البعيد • •

كل ماسولي يؤلني ويجزني ويجعل الحياة سخيقة بنظري • •
حتى صاحب الفندق الذي هب لاستقبالي بفرح لا مزيد عليه وصافحني
بحرارة وشوق كصديق قديم ، مسكين هذا الانسان • •
لقد تهدم ، ان شبح الموت يلقي علي وجهه المتغضن ظله الاصفر الكئيب • •

لا ادري . .

اية قوة جبارة استطاعت ان تسلبه كل الرشاقة والوضاعة في مثل تلك

المدة القصيرة من الزمن . .

اهذه هي حياة الانسان . ! ? .

يالها من حياة حقارة خير منها شجرة في غاب تمتد مئات السنين

دون ماغاية . .

سألته :

— اين تريد ان تضعني ? . .

فاجاب وعلني وجهه ابشامة :

في غرفتك . .

فقلت في سذاجة ? .

— اما زالت كما كانت قبل خمسة عشر عاماً ? . .

فاجاب ويده تعبت بردائه الابيض :

— نعم ، ان غرفتك ما برحت كما هي . .

ولكن الذي تبدل هو انت . .

ثم اين صاحبتك ?

واخجلني ان التفت حولي كأنما ابحت عنها . .

ثم نظرت الى الساعة الكبيرة المعلقة وراء منضدته وقلت كالحالم :

— وهذه الساعة مازالت تدق . .

كما كانت يوم كنت ارقب عقاربها الهرمة البطيئة وهي تدنو من

التاسعة صباحاً . .

قلتها ومضيت مسرعا الى غرفتي وانا اقول في نفسي :

كيف يمكنني ان اتم هذه الزيارة دون ان افقد عقلي ? . .

ألم يكن الاوفق ان ابقي في بلدي بعيدا عن كل ما يقلقني ويشير
مشاعري ؟ .

وراء هذه النافذة لبثت ثلاثة ايام متوالية انتظرها . . .
يا لساعات الالم اللذيذ ، ما احبها لدي ، لو تعود . . .
ضوضاء السوق ، نداءات الباعة المتجولين ، وزين كؤوس العيران ، بل ،
بل ، بليلا . . .

آلاف الوجوه ، تشرق وتغيب ووجهها الحبيب لا يبزغ . . .
المؤذن يؤذن للظهر ، للعصر ، للمغرب ، الليل يمضي ويجيء النهار . . .
ويبقى قلبي الحيران ينتفض لرؤية كل رداء رمادي يخفق في زحمة العيد . . .
ولكنني في صباح اليوم الرابع فوجئت برسالة . . .
عواطف نبيلة واعتذار ، وقبلات مع الريح . . .
وفي كل هذا يزول الالم وتنسى الاساءة وتبتسم الحياة من جديد . . .
لا زمان . . .

فالاعوام الطويلة التي امضيتها بعيداً عن هذا البلد ، تطوى الآن امام
ناظري كمروحة صغيرة بيد حسناء . انها تلامس واقعي ، تعايش حاضري ،
تخالط احساسني بكل ما فيها من صور ومشاعر حتى لقد ادخل الهم في
روعي انني مازلت في مثل ما كنت به من موافقي السالفة ، فرحت ارفف
السمع ، علني اسمع صوت اقدمها السريعة ، وهي تتخطى بهو الفندق في
طريقها الى غرفتي . . .

ولكأنني بها تدخل مرتاعة لاهته ، فترشق معطفها وقفازها على السرير
ثم تنظر الي بعيونها - السود المتألقة تلك النظرة التي تقول :

ها قد جئت في الوقت المحدد . . .

اواه . . .

كيف أستطيع تضيئة الليل في هذه الغرفة المشبعة بروحها . .
انا معها الان ، معها في كل زمان ومكان . .

ان صوتها العذب الحار ليردد في اذني دون انقطاع انشودتها التالية :
» . . ورايت ورقة من الورد ، نزعت من ايامك ، والقيت في لجج
ايامي أستطيع بها ان اقول للسنوات المستعجلة مري ، مري دائماً فاني
لن اشيخ ، اذهبي بازهارك الذابلة ، فان في الروح زهرة لا يستطاع قطفها .
. . تركت الفندق ميمماً شطر قاسيون . . ولما بلغت الجسر قادتني القدم
الى طريق كيوان . . وهناك ، على ضفة النهر ، وتحت ظل شجرة ليفة من
الجبلاس ، جلست مثقل النفس ، تعب القلب ، ينتابني ما يشبه العصف . .
لقد شهد هذا المكان اجمل ساعات حينا . . ارجلنا في الماء ، وايدينا
متشابكة وزقزقة العصافير تملأ روحنا سعادة وغبطة .
كلا . .

لم تكن القبلة الاولى هي الالذ ، بل الاخيرة المشهودة . .
اذ كانت امرأة لبقة محتفية على الضفة الثانية وراء خيمة من الورد تحسبنا
كلما هممنا بها فنكف جازعين . . ولما استبان وجهها الضاحك الفتان ، استعفينه
عما سلف من قلة حياتنا . . ولكنها او مات برأسها كأنما تقول :
استمرا فيما انتما عليه فانه يروقني . .
وكان ان رأت رأي العين الذ قبلة على أجمل شفاء . .
انتزعت اقدامي من الارض التي احبها وواصلت السير . .
لم اكن وحيداً . .

فهناك روحها الحنون ترفرف حولي باجنحة من نور . .
احسها تخاصرنني ، تثرثر في اذني ، تمازحني . .
اشعر بميلها الى صدري ، بنفح انفاسها المضطربة ييب حاراً على وجهي «

انها تملأني . . . تجري ملتهبة في دمي .
من هذا الطريق المتعرج المحوط بشباك منيعة شائكة في شجيرات
الصيراجد فجأة حياتي الضائعة . . .
فوراء كل نظرة ارشقها حولي تنبعت آلاف الصور المخترنة من خيالي . . .
وتحت كل دوسة قدم على الارض الحصباء تتفجر ينابيع ثرة من ذكرياتي
الحفيلة بشتى المشاعر . . . مررت بمنازل احبها . . .
انها ما برحت راسخة القدم امام معول الزمن الهدام . . .
ولكن اين ناسها ؟ . . .
ذهبوا الى حيث لا عود . ضاعوا في متاهات العدم . اصبحوا للحشرات
والدود . . .
تضحكني المثل العليا ، الاهداف ، الغايات ، السعادات المنتظرة . . .
ويضحكني اكثر واكثر اولئك الذين يسرون الى الهاوية وهم يهتفون
في سبيل العظمة والمجد نحميا ونموت . . .
يا للحمقى . . .
لماذا لا يقولون في سبيل تلك الدورة السرمدية الفارغة التي لا تنطوي على
شيء نزهق حياتنا بالواجب .
اقف الان امام قبرها . . .
هذه هي الوصية التي من اجلها جئت . . .
ولكن ماذا يمكن ان يكون تحت هذا الكوم من الحجارة ؟ . بضع
عظام نخرات وحفنة من تراب اسود . . . واما الباقي ؟ . الباقي المضيء
المشتعل المتحرك فأين يكون ؟ . . .
الست اضعه في نفسي . احمله معي ؟ ! ادفنه بين اضلعي . . .
يا لها اعجوبة . قبور تتزاور . . .

ولكن اية حماقة دفعتني الى زيارة هذا القبر الصامت الذي لا اعرفه من
قبل ولا يعرفني . .
هناك في اعلى قاسيون صخرة ملساء سكبنا على سطحها دموع الفرح . .
فاليها . .
انها احق بالزيارة واجدر . .
وانطلقت في صعود ، يتقدمني موكبي الفخم ، طيوف الماضي ،
بوارق الذكريات ، تنهدات الزمن البعيد . . .



القطعة

امضي ابو علي بضعة ايام وهو يبحث عن عمل يعتاش منه ، ولكنه لم يوفق . . .
وكاد يودى به اليأس الى الانتحار ، بيد ان ابا علي رجل عاطفي ، يحب اولاده ،
ولولا ذلك لقتل نفسه غير آسف . . .

وبينا كان ذات يوم يسير في اسواق المدينة ، ساهماً مكتئباً ، يفكر
بوسيلة تؤمن القوت لاطفاله ، اذا به يلمح محفظة جلدية تسقط من رجل مجبول ،
هر به مسرعاً يحاول التعلغل في الزحام . . .

والتقط ابو علي المحفظة . . . وخطر له لاول وهلة ان يلحق بصاحبها
فيعيدها اليه ، ولكنه لامر ما ، وقف حائراً متردداً ، ثم دسها بين ارجلته المهترئة ،
وجعل يتلفت حوله ويقول في نفسه :

من لي بمن يقذف بي الى البيت ويغلق علي الابواب والنوافذ .
ووصل البيت ولما راته زوجته على حاله تلك ، زائغ النظر ، لاهث
الانفاس ، خائفا مضطربا ظنت ان احدا يتبعه ويريد به شراً ، فهتت بالصياح ،
ولكنه سارع فوضع يده على فمها وقال :

— اصمتي يا حمقاء ، فالموقف يتطلب الصمت والحذر . . . اغلقي الباب
بسرعة ، واتبعيني الى المطبخ . وغابا في المطبخ مدة طويلة . . . ثم خرجا وقد

انطبعت على وجهيها صورة واحدة .. صورة تحمل الشيء من بوادر الجنون ...
بيد ان ذلك الجنون ؛ كان يشير بوضوح الى انه من نوع سعيد . . . ففي عينيها
بريق قوي ينم عن سرور داخلي بلغ حده الاقصى ، وفي شفاهيها المنفرجة
شبح ابتسامة تحاكي الى حد بعيد ابتسامة الاطفال في احلامهم الذهبية .
ودخلا الغرفة ... فاستقبلها اطفالها بمظاهرة عنيفة : انهم جائعون
يريدون الطعام ... اين الخبز الموعود؟ ... اين الفول والزيتون ؟ .. وتعال
الضجة ، وامتزج الصراخ بالبكاء ، حتى ان الطفل الصغير ، لطفي ، قد جعل
يهتز في ارجوحته اهتزازاً قوياً ، ويلوح بيده استنكاراً ، ويعوي كجرو
صغير . . .

بيد ان ابا علي ، لم يثر كعادته في مثل هذه الحالات ولم يلجأ الى العنف
والشدة في اعادة السلام والنظام الى البيت ... بل راح ينظر الى ما يجري
حوله بصبر وهدوء ويحاول اسكاتهم باسلوب جميل مشحون بالعاطفة الطيبة
والوعد الصادق ، مما أدخل الاطمئنان الى قلوبهم ، فصمتوا راضين ، ثم
تمددوا على فراش واحد ، يتقلب بعضهم على بعض ، متعانقين كصغار الافاعي ...
وكان الزوجان في هذه الليلة غيرهما في كل ليلة . لانزاع ، ولا مهاترات ،
ولا خصام ، بل صفاء ووثام ، واستغراق في تسامر هامس طويل ، كانت
تتخلله فترات من الصمت الخالم ، الذي لم يكن يعكسه غير نم الاطفال في
في نومهم الهادي ، او سعالهم المفاجيء في بعض الاحيان ...

قالت له وهي ترمقه بنظرات الحب والاعجاب :

— قل لي يا ابا علي الم يرك احد ؟

— كلا يا أم علي ، ولكنني صادفت في طريقي (عبد الهادي بك) فابتعدت

عنه ، وسمعته يناديني فما التفت اليه .

فصاحت أم علي وكأنها تذكرت أمراً :

— آ... نسيت ان اخبرك ، لقد ارسل في طلبك اليوم ، ولعله يريد
اعادتك الى عملك في حديقته ...

وضحك ابو علي ، واغرب في الضحك ، ثم قال بلهجة مليئة بالتهكم :
مسكين ... انه لا يعرف ! ..

وامضيا بضع لحظات صامتين ثم قالت ام علي مفاجئة :

— يجب عليك ان تتناع لي سواراً ذهبياً مرصعاً بالماس كالذي في يد
بدرية امرأة جارنا ...

— هذا اقل ما يجب . . .

— واردة حريرية ، وجوارب نايلون ، واحذية من احدث طراز ...

— نعم نعم ، ومعاطف ممتازة ، تزينها أفرية ثعالب رائعة التكوين ...

— أوه ... ما أحسنك ! .. قل لي الا تستطيع شراء مقاعد جديدة ،

وسجادة عجمية ، وخزانة وراديو وبراد ... ، وغسالة وبوتوغاز ، وتلفزيون ..

فأجاب وفي عينيه بريق غريب ! .

— انني أفكر في اكثر من هذا ...

— تعني انك تريد أن تتناع لنا سيارة ؟ ...

— كلا ، ولكنني أريد أولاً وقبل كل شيء آخر ، أن اصلح من شأن

الاولاد ، فأبتاع لهم ما يلزمهم من الالبسة ، ثم أدخلهم المدرسة مجهزين

بجيز الادوات ...

وساد الصمت ... وراح كل منها ينظر أمامه شاردأ ، ولكأنه يحلم

في أشياء كهذه ، بل وأضخم من هذه ...

وكان ضوء المصباح البترولي الشاحب ، والظلال المضطربة التي يتركها

على الجدران ، وعمق الليل وسكونه ، يمد الخيال بشطحات اسطورية بعيدة

المدى ، ويفسح المجال للتخليق في أجواء أسمي وأرفع ...

وفجأة اضطرب نور المصباح فأدركا بان بتروله قد نفذ ، وان عليهما ان ينهضا الى فراشهما ... ومضى وقت طويل ... كان يظن معه انها قد استغرقتا في النوم ، ولكن صوت أم علي قد انبعث من قلب السكون والظلام يسأل بشدة :

كم عدد الاوراق ؟ ...

فأجاب ابو علي بصوت موسيقي و كأنه يلتذ مايقول : خمسمائة قطعة ، كل قطعة بمائة ليرة ...

هنا تبدأ الصعوبة ... فأبو علي الآن في السوق ، يحمل في جيبه ورقة من ذات مائة ليرة ... انه لا يدري ما تخفي له المصادفات ، فقد يسأله مثلاً أحد الباعة من أين لك هذا ... فما يكون جوابه ... ؟
- هذا من كد الساعد وعرق الجبين .

- كذاب ... فالتناقض بين اثوابك المهترئة القذرة ، وبين تلك الورقة الزرقاء من ذات المائة ، واضح ظاهر لا يحتاج الى عيون نافذة ...
- أنا ثري حرب محافظ ، قد ابقى نفسه على طبيعتها ، ولم ينجح الى التقليد المضحك والظهور بغير مظهره القديم الذي اعتاده ...

- هه ... نحن نعرفك ... قبل الحرب وبعدها .. فأبو علي هو ابو علي ، في كل زمان ... انه عامل حدائق كسول ، يقنعه ويرضيه ان يعيش كل العمر بذلك الاجر اليومي التافه الذي لا يكفيه لأطعام اسرته الخبز والزيتون ...
اوه ... لقد وقع ابو علي ، وافتضح أمره ، وأرغم على اعادة المال الى ذويه ، وهذا هين ويسير بالنسبة لما يصيبه من سوء السمعة ، فان للناس السنة لا ترحم ..

بمثل هذا كان ابو علي يحدث نفسه وهو يطوف الاسواق ويستعرض وجهات المخازن ممتعاً ناظره بما فيها من ما كل وملبس وزينة ...

وكان يحمل تحت ابطه كيساً كبيراً قد اعدده ليملئه بالطيب النفيس من
الغذاء ، ومن ثم يعود الى البيت ، فيفرغه بين أرجل صغاره الذين يستقبلونه
بفرح لا مزيد عليه ...

يالها من متعة رائعة فليس احب الى قاب الوالد مثل ان يرى وجوه
صغاره يعمرها الفرح والبشر .. ولكن شيئاً من التهييب كان يدفع به الى
التريث ، فيظل ينتقل من متجر الى متجر دون ان يجد في نفسه الشجاعة
الكافية للاقدام على الشراء ...

واخيراً ... اي عندما اتم المساء وأصبح مرغماً على العودة الى البيت ،
اقتحم احد المتاجر اقتحام اليأس المستमित ، فابتاع ما اراد ، ثم خرج يتهد
ارتياحاً وفي جيبه بقية المائة ..

أوه ... لم يكن يظن ان هذا العمل الصعب يمكن ان ينتهي بمثل هذه
السهولة والبساطة ... وانطلق الى البيت ، ورجلاه الهزيلتان تلتويان تحته ،
وحمله الثقيل يتأرجح على كتفيه ويقذف به ذات اليمين والشمال حتى ليكاد
يوقعه ويحطمه ... ولكن صورة جميلة ، صورة صغاره ، وهم يستقبلونه
فرحين بما جلب لهم ، كانت تشد من عزمه ، وتضاعف قواه وتدفع به الى
البيت خفيفاً كأنما هو محمول على اجنحة غير منظورة ...

لا يذكر ابو علي قط ، انه امضى في حياته كلها ليلة سعيدة كهذه الليلة ،
فهاهم اطفاله الاحياء يجلسون الى جانبه حول طبق واحد يتناولون عليه
عشاءهم وينطلقون فرحين في حركة جميلة هادئة ، لاتتم اطلاقاً عن شيء من
الشراسة وسوء الطبع مما كان يظن بهم من قبل ...

وهاهي ذي زوجه تبدو نظيفة الوجه مرجلة الشعر حسنة المندام ،
لطيفة دمثة ...

فكأنما هي مخلوق آخر ماعرفه ولا الفه في ايامه الماضية .

والحقيقة لقد كانت في هذه الليلة مثال المرأة الطيبة التي تعرف كيف
تتذوق طعم السعادة المنزلية . ويكفي ان ينظر اليها المرء نظرة خاطفة
ليدرك ان وراء ذلك الجبين الابيض الذي غضنه الشقاء والفقر ، والحدين
الشاحبين الملتصقين بالعظم ، والعيون المتعبة الكليمة ، شيئاً في منتهى الجمال
يعمر حياتها اليأسه ويشبعها امومة ومحبة ...

وتوالت الايام .. وابو علي انشط ما يكون الى استكمال لوازم بيته ،
فهو ابدأ في ذهاب ومجيء بين السوق والبيت ، لا يفتر عن الشراء ، من كل
الاشياء ، ففي خياله صورة لبيت انيق ، كان يعمل فيه خادماً او شبه خادماً ...
انه يريد تحقيق هذه الصورة مهما بلغت تكاليفها ، وهل اقدر من
الانسان - كل انسان - على الارتقاء وطلب العيش الاحسن ، حين تكون
وسائل الحياة في متناول يده ، وطوع ارادته ، فمن كان يظن ان هؤلاء
الاطفال (اولاد أبي علي) ... الذين كانوا يمضون اغلب الوقت في التشرذ
في شوارع المدينة ، والاعتداء على السابلة ، ورشق الناس بالكلام البذيء
يصبحون الآن في وضع لا يفارق فيه بينهم وبين انبل التلاميذ ... او من كان
يظن ان تلك المرأة (زوجة أبي علي) ... التي كانت مضرب المثل في الرعونة
والاهمال والقذارة ، تصبح على مثل ماهي عليه الآن ، اناقة وتعقل ونشاط ،
وتدير بيتها كامهر ما يمكن ان تديره امرأة غيرها قد نشأت في ارقى الاوساط ..
ولكن هذا لم يدم طويلاً ...

ففي ذات ليلة بينما كانت تلك الاسرة تنعم بوقت سعيد من حياتها
الجديدة ، الرفيعة ، اذا بها تدهم بما لم يكن في حسابها . ذلك ان شرذمة
من رجال الشرطة قد اقتحمت البيت واعتقلت ابا علي ، ثم راحت تتحرى
المنزل بين ولولة المرأة وعويل الاطفال ...

مسكين ابو علي ... لقد ظن ان الصدق ينجيه فدلهم على مكان البقية

الباقية من اللقطة معترفاً بالحقيقة ثم سار معهم هاديء النفس ، ثابت الاعصاب «
غير مكترث لما يبدو منه من تحفل واهتمام بالقبض عليه ...
و حين علم بان هنالك جريمة اسمها جريمة تزيف نقد الدولة ، عقوبتها
السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة ضحك وقال : ان من لا يحسن القراءة
والكتابة لا يحسن التزييف ، ومع ذلك فالحياة في السجن رغم ثقلها تبدو
وكأنها اخف وطأة ، مما كنت به .



هروب من الدرنه

لم اكن قد بلغت السابعة بعد ، عندما اصبحت بأول صدمة نفسية ، كان لها اعظم الاثر في حياتي الصغيرة ، هذه الصدمة التي جعلتني ادرك رغم حادثي ، ان الانسان لا يمكنه الا ان يكون مرتبطاً بكل شعوره وعواطفه بالارض التي انبتته .

اذكر انني كنت جالساً في عتبة المطبخ ، على كرسي صغير من الخشب ، أقبض بيكلتا يدي على عظمة خروف انتشلتها من القدر الموضوعة على النار ، ورحت امتص غضاريفها ، وأحاول جهدي انتزاع نخاعها فلا أفلح .

وكانت أمامي قطي (فله) تراقبني بانتباه وتيقظ ، متحفزة للوثوب علي واختطاف تلك العظمة من بين يدي ، ولم أكن آنئذ في حال نفسية طبيعية تساعدني على مداعبتها كما اعتدت ان افعل ، بل كنت مكتئباً انظر الى ساحة الدار المليئة بجليط من الامتعة التي يتكدر بعضها فوق بعض بانتظار تعبئتها في الصناديق المهيأة لها وارسالها الى مستودعات الشحن .

لا ادري ماهي هذه (الشام) التي يذكرها اهلي كثيراً في أحاديثهم ، ثم ما للدافع الى النزوح عن بلدنا حمص ، والاقامة في بلد آخر ، مجهول ، بعيد ... أهناك ما يستحق كل هذه الفوضى وكل هذا التخريب ؟

شد ما كان يؤلمني أن أفارق دارنا ، دارنا التي فيها ولدت ، وبين جدرانها
السود ادركت وجودي الصغير الضاحك .. وان أبتعد عن ساحة الحي ،
المركز الرئيسي لاجتماع الرفاق ، حيث ننشط الى اللعب ، بالبيور ، بالدوامة ،
بالدحل .. وان لا آكل بعد الآن (عرانيس) صطوف و (مخلل) الحمداني ،
و (شماميط) المجدوب .

وجدت نفسي في القطار مع قطتي « فلة » التي حملتها معي رغم ممانعة
الجميع ثم وجدت نفسي في حي (السمانة) في دار صغيرة تقع في (دخلة)
مظلمة ، تشبعها رائحة الرطوبة ، وتحتاج الى الاشارة بالكهرباء نهائياً ..
أهذه هي الشام ؟! ...

ورأيت نفسي ذات صباح أقف على باب المدرسة يخاطني شعور من يقف
على باب السجن ، وكنت اسمع صوت الجرس يرن رنيناً خشناً متواصلًا ،
داعياً الطلاب الى الدخول ولكنني لبثت مسمرًا في مكاني لا تنازعني أية رغبة
في الاستجابة لدعوته .

وانتهى الدرس الاول ، وأعقبه الدرس الثاني ، وأنا في مثل ما أنا فيه
من الاصرار والتمرد .. وعندما أحسست بالريح الباردة تنفخ وجهي
المضطرم ، ورأيت قطعاً من الثلج تتساقط على صداري المدرسي الاسود ،
حركت أقدامي نحو قلب المدينة ، غير آسف لما قد يفوتني من معرفة
الاساتذة المغرمين باستعمال العصا لأتفه الاسباب .

لقد أمضيت ستة أشهر متتابعة هارباً من المدرسة اسلك في حياتي سلوكاً
شبهياً الى حد كبير بسلوك المتشردين .

وكانت نفسي الطفلة ، المتعطشة لمعرفة الاشياء الكثيرة التي يحفل بها هذا
العالم الجديد كل الجدة بالنسبة لوجودي الصغير الساذج ، تدفعني بلا هوادة

ودون ما ترمق الى السبيل ألو عر الذي انتهجه راضياً رغم ما يكتنفه من
مشقة وشر ورذيلة .

كنت أخرج من البيت صباح كل يوم ، فأخفي كتي تحت صدري
المدرسي وانطلق في شوارع المدينة ، وقد أمر بباب المدرسة ، فأشبح بوجهي
عنه كشيء بغيبض يؤذيني ان أنظر اليه . في حين كنت أقف أحياناً في
البرد القارس تحت احدى السقائف ، ثلاث ساعات أو أكثر ، منتظراً ان
تكف السماء عن تهطل امطارها لاواصل السير والتشرد . وعندما يجيء
المساء وينصرف الطلاب الى بيوتهم ، كنت أسلك طريقي الى بيتي كواحد
منهم ، وهناك .. تحت انظار الاهل ومراقبتهم ، كنت اتقن جيداً فن
التمثيل ، فأظل بضع ساعات اتظاهر بمراجعة دروسي وكتابة وظائف ، ولما
كنت أنهض للنوم كنت أسمع كلمات الاطراء تتبعني حتى فراشي .
- مسكين انه يرهق نفسه من شدة المطالعة .

- الحقيقة انه تلميذ مجتهد ، وسيكون له في مستقبله شأن عظيم .
- ينبغي ان يكافأ على اجتهاده وان يعطى (خرجته) مضاعفة .
بيد أنه لم يكن لهذه الاقوال الطيبة أي صدى ايجابي في نفسي ، وكانت
تدخل احدى أذني لتخرج من الاذن الثانية نظيفة كما دخلت .
سألت نفسي مرة : ما الذي يمكن ان يحدث فيما لو علم اهلي حقيقة امري ؟
وظل السؤال بلا جواب ، ورفعت رأسي استخفافاً ثم مضيت لشأني الذي
كنت فيه غير عابيء بالتناجج ..

وقفت ذات يوم امام مصنع للحداة ، وكان العمال جميعاً يمارسون
اعمالهم بقوة وحرارة ، ويعالجون قطعة من الحديد معالجة يتصبب لها العرق
من أجسامهم العارية بيد ان ذلك على ما فيه من جمال ومنتعة لم يكن ليشتغلني
عن ذلك الطفل الصغير الذي لمحت وراء الكورينض بعمل جبار لا يتناسب

مع جسمه الهزيل ، لقد كان وهو يحرك يديه الضعيفتين ذلك الكور الهائل ،
اشبه ما يكون بالضفدع متعلقاً ببطن ثور عظيم .

و كنت اسمع معلمه العملاق ينتهره بين آن وآن بصوت يخرج من
حنجرته القوية مدوياً كرعء آذار - احمد ياملعون ، ياقدر ، ياخنزير ،
لماذا تغمض عينيك كالنائم ، لماذا لا تحرك يديك بقوة ، اسرع ...

اواه . . مسكين أنت يا أحمد ، مسكين أيها الطفل الصغير ، أيها الطفل
الالة ، احرام ، ان تتوقف لتسعل ، أو لترسل زفرة في الفضاء ، او لتلتقط
انفاسك المبهورة من شدة التعب ؟ وسمعت المعلم بعد فترة قصيرة يقول له :
اذهب الى البيت وجئني بالغداء . وانطلق الطفل ، فانطلقت وراءه ،

ورأيته يبتسم في وجهي فابتسمت له ، وسرعان ما أصبحنا صديقين حميمين ..
وكان عربون صداقتنا حفنة من (القضامة) قدمتها له فتناولها من يدي
وحمرة الحجل تصبغ خدية الملوئين بالفحم ... آه لم أشعر طول حياتي الماضية
بانني ارتبطت بهذا الطفل الذي لا أعرف عنه الا انه أجير حداد . . هل
أقول انني أحببته ؟ .

كنت انتظره ظهر كل يوم أمام باب المصنع لنذهب معاً الى بيت
المعلم ونجلب له غذائه ، وكانت تغمرنا موجة طامية من الفرح الداخلي تبدو
آثارها جلية على وجوهنا الضاحكة .. ، نعم ليس في العالم كله لذة يمكنها ان
تعادل لذة هذه الصداقة الحلوة البريئة .. وما زلت حتى الآن .

اذكر الألم الشديد الذي اعتصر قلبي حين قال لي ذات يوم أنه جائع ،
وأنه لم يأكل في أمسه سوى نصف رغيف يابس بلا ادم . اواه . . لو كان
بالامكان ان يطعم الانسان قلبه للجائعين من أصدقائه لاطعمت هذا الصديق
قلبي وانا غير آسف . كلا ، لم أكن رذيلاً قط ، حين اغريته عندئذ بان يترك

غداء معلمه ، وان يهرب من المصنع ، كما هربت انا قبلاً من المدرسة ..
لقد اصبحنا منذ ذلك اليوم نجتمع صباحاً في مدخل سوق الحميدية ، ثم
ننطلق من هناك الى حيث تشاء أقدمنا .. لم نترك ، شارعاً او مقبرة او
مسجداً او بستاناً الا قصدناه مطلعين على اتفه محتوياته .. وكان من الطبيعي
ان نتعرف اثناء هذه الجولات على أناس كثيرين لعل أجدرهم بالذكر (الحاجة
أم عثمان) هذه المرأة العجوز التي كانت تنفخنا بعض النقود لقاء مساعدتها
بغسل الصوف بنهر كيوان . مسكينة ام عثمان .. انها لم تكن تعلم اننا
ذات مرة بعنا حزمة من صوفها واكلنا بشمها الرز والفول في مطعم الشيخ وصفي
الواقع في حي العمارة .

ومن اولئك الناس أيضاً حارس المحطة ، هذا الرجل الكسول الذي
يغمض عينيه حين يرانا تتسلق عربات القطار المملوء بصناديق البورتقال اليافاوي
ولكنه لم يكن لينسى قط . حين يدرك اننا قد أصبحنا خارج المحطة ، ان
يصيح بنا تلك الصيحة التقليدية التي لا تنطوي على شيء : آه يا اولاد الحرام ..
واما ابوبكري الحجار ، فأمره لاشك اعظم . فلقد استطاع هذا الحبيث
ان يجعلنا نحلم باجر كبير طيلة اسبوع كامل ، وكنا نساعدته بتعبئة طنابره
بالحجارة التي كان يقتلعها من أعالي جبل قاسيون وعندما حان وقت دفع
الاجور رأيناه يهاجمنا بعصاه الغليظة . ويسمعنا من الكلام البذيء ما لم
نسمع قط في حياتنا .. لا بأس فاذا فقدنا الاجرة فقد افدنا من التجربة ،
على ان الظروف لم تسمح لنا بمواصلة التشرذم مدة طويلة ، فذات يوم بينما
كنا نتسكع على ضفاف بردى قرب معهد الحقوق اذا بي أحس بيد قوية
تقبض على ذراعي ، واسمع صوت أبي يسأل - باستغراب : أهذا أنت ! ..
وأين مدرستك ? ..

لم يعد هناك ما يستحق الذكر بعد هذا الحادث في الفترة التي امضيتها
بدمشق ولكن الشيء الذي مازال يشغل بالي حتى هذه اللحظة هو معرفة
الوضع الذي بات عليه صديقي احمد ، بعد ان غادرته واقفاً على ضفة النهر ،
وقد فغر فاه من هول المفاجأة . .



السيرة

لقد خسرت ابي في تجارة الاجواخ بدمشق كل ماملك ، وازاء هذه الكارثة العظيمة فقد تحتم علينا ان نعود الى بلدنا حمص ..
وكان سروري لا يوصف عندما طلب الينا والذي ان نهى انفسنا للرحيل ..

وكانت وسائل الانتقال في نهاية الربيع الاول من القرن الحالي تقتصر على القطار وعجلات الشوكس اي (البراشق) اذ لم تكن السيارات في ذلك العهد قد انتشرت على شكل عام يؤمن السفر للجميع باجور زهيدة ، ثم ان الطرقات المشعثة لم تكن تساعد على الذهاب الى الاماكن البعيدة ...
وعجلات الشوكس هذه ، شبيهة بالطنابر من كل الوجوه ، غير انها تتميز بمظلة من الخام الابيض تقي المسافرين من اشعة الشمس ..

لا ادري الاسباب التي حفزت ابي الى العودة بالقطار مع اخي الاكبر الذي كان طالباً بالحقوق ، وارسالنا نحن جميعاً ، انا واخي (خ) وبقيّة افراد امرتنا وعمتي وبناتها ، بعجلة شوكسية تقطع المسافة بين دمشق وحمص - ان ساعدتها الظروف - باربعة ايام على اقل تقدير .. اكبر الظن ان والذي قد استكثر اجور القطار التي كانت باهظة جداً ، وله عذره ، فلقد كان في وضع ما دي سيء للغاية ..

وصباح احد الايام رأيت نفسي اركب (العجلة) واودع دمشق بوجه
خاحك غير آسف لشيء مما اترك ورائي، ولكنني كنت اذكر بتحنان عظيم
رفيقي في التشرذ احمد الحداد وقطبي (فلة) التي خرجت في يوم من ايام
شباط على ما اظن مع قط شامي ذي فراء ساحر الالوان ولم تعد للبيت ..
وكانت الطبيعة كأجمل ماتكون ..

فكل ما فيها رائع ممتع : ادراج الزيتون اللفيفة ذات الظلال العميقة ،
امواه الانهار المتدفقة كذوب الفضة ، موسيقى العصفور والصرصور والضفدع ،
ازهار البقول في اشكالها البديعة ، اشجار المشمش المثقلة بالثمر المضيء كالذهب .
وما الذ طقطقة دوالب العجلة على الارض الحصباء واغاني الحوذي
ممزوجة بمجمعه الجياد .. لم يكن للعجلة مقاعد للجلوس فكنا نقعد فوق
امتعتنا ، وكان اخي (خ) ذو الشعر الاشقر الأجدد يأخذ مكانه جانب
الحوذي ، تبدو على وجهه المليء ببقع الزهرة سياء الجد والصرامة ويفرض
ارادته على الجميع كسيد اروستقراطي صغير اوجدته الظروف المعاكسة
في غير المكان الذي ينبغي ان يكون فيه ..

لقد كان يصدر اوامره الينا كرب اسرة حقيقي ، والويل كل الويل
لمن يخالف تلك الاوامر ، ولاعجب ، فلقد اوكل ابي اليه امر
الانفاق علينا باعتباره اكبر سناً ، وفي هذا ما فيه من بواعث الزهو والشموخ
بالانف بالنسبة لشاب لم يتجاوز عامه السابع عشر ..

على ان المسألة قد تعدت حدودها الشكلية المقبولة حين لامست حياتنا
من طرفها الحساس وشد ما كانت دهشتنا عندما طلبنا منه ان يوزع علينا
طعامنا فاجاب بلهجة حازمة ..

— ليس في حقيتي سوى الحبز والجن فليختر كل منكم بين رغيف بلا

ادام ونصف رغيف مع الادام وكان ان فضل اكثرنا الرغيف بلا ادام لانه
املاً للمعدة واشبع . .

وبتنا ليلتنا الاولى في العراء ، في مكان يسمونه « قبة العصافير » ولم
نكن وحدنا بل كنا ضمن قافلة تتألف من بضعة عجلات وتحمل عدداً وافراً
من المسافرين ومع ذلك فلقد امضينا الليل في جو من الخوف جعل
اكثرنا يارق . .

وكان للحوذي الاثر الاكبر في بث الرعب في قلوبنا عندما راح يحدثنا
في مطلع السهرة عن مغامراته مع اللصوص ، وقطاع الطرق ويروي لنا
كيف ان الاشقياء هاجموا القافلة ذات مرة وقتلوا ثلاثة من المسافرين بعد
ان سلبوهم نفودهم وكيف ان ضبعا عظيمة اقتحمت عجلة في ليلة مثلجة وافترست
طفلة صغيرة كانت تنام في حضن امها ! . .

لاشك بان الحوذي كذاب . .

وانه من الناس الذين يحبون بما يختلفون ان ينشروا حول شخصياتهم
الهزيلة هالات اسطورية تجعلهم في نظر البسطاء على شيء من الروعة والمهابة . .
والكني على الرغم من يقيني بكذبه ، لم اتم قط رغم النعاس الشديد الذي
كان يثقل جفوني ويشدها الى اسفل كأنها مربوطة بمرساة .

كنت كل الوقت ملتصقاً بجسم جدي اهدف السمع الى كل حركة او
نأمة تحملها الرياح في الفضاء الواسع المظلم وتلقيا في اذني غريبة كل الغرابة
عن مصدرها الحقيقي . . .

فمحممة الجياد كجثير الضباع ، وغطيظ النيام كفحيح الافاعي ، وقد
يسعل احد المسافرين او يشخر ، فاظن ان اللصوص قد داهمو القافلة واعملوا
سكاكينهم في نحور المسافرين وبطونهم . .

وعندما اقبل الصباح بعد ليلة طويلة حافلة بالوهم ، تحركت القافلة باتجاه

قوية (القطيفة) ولم استطع الا ان اسأل الحوذي :

- وما هي هذه القطيفة ؟ .. اهي قبة العصافير ؟ ! .

وضحك الحوذي كأنما ادرك السر الذي حفزني الى هذا السؤال المفاجيء ،

وقال بلهجة مطمئنة :

- كلا ، انها قرية عامرة ، وفيها خان كبير وغرف مفروشة تتوفر

فيها جميع اسباب الراحة ..

وصمت لحظة ثم اردف وهو يغمز بعينه ، وينظر الي اخي مبتسماً :

- اما الدجاج والبط والاوز والديوك الحبشية فهي اكثر من الذباب ،

وكذلك البيض ، ولكن الشيء الصعب هو ان يتعود الانسان ان ينفق ..

واضطرب اخي لكلمات الحوذي ، وتهاياً للرد عليه بشدة ...

ولكن جدتي التي كانت تشارف الثمانين ، استطاعت ان تسوي المشكلة

بسهولة ويسر ، وقالت موجهة كلامها للحوذي :

- صحيح ان الدجاج كثير في القرية ولكن النقود التي نحملها معنا في

هذه السفرة الطويلة الشاقة لاتساعدنا على العيش كما اعتدنا ان نعيش .

ولا ادري ما الذي حدث بعد ذلك ، فلقد نمت نوماً عميقاً طوال النهار ،

وعندما استيقظت رأيت (القطيفة) وكأنها بقعة صغيرة بيضاء تلتصق

بالافق البعيد ..

والحقيقة ان القرية بالنسبة لميول الاطفال ونزوعهم الي اللعب هي اكثر

بهجة ومنتعة مما يتصور الخيال فما كدنا نضع اقدامنا على الارض اننا وشقيقتي

الصغرى وبنات عمتي حتى رحنا نتركا في كل اتجاه باحثين عما يرضي عواطفنا

ويروي نفوسنا المتعطشة لمعرفة حياة القرية ..

فنحن في كل مكان ..

على السلم المؤدي لسطح الخان ، في الاصطبل ، مع الحمير والجياد ، على

فوهة البئر نسبر غوره ، في غرفة صاحب الحان ، في حظائر الدجاج ، بين رؤوس الماعز نرضع اثناءها ، وما اجمل ركوب (الدراسة) التي يجرها ثور ، وما الذ اللعب على ظهر البيادر ... اوه ...

ياللمفاجأة العظيمة ، هنا كوم منسي من بيض الدجاج تعمره الاعشاب فلنأخذ بعضه وهناك اوزة تتخطر بعيداً عن القرية ، ليست بذات صاحب ، فلنكن نحن اصحابها ..

ولكننا حين نعود الى الحان كنا نصاب بحجية امل مريرة ، فان جدتنا نصف الحرفة تأمرنا بان نعيد كل شيء الى مكانه ، وتسمعنا من الكلام اوجعه واقساه .

لم تكن الشمس قد بزغت بعد ، عندما تأدت الى أسماعنا الجلبة التي احدثها الحوذيون وهم يشدون جيادهم الى العجلات في ساحة الحان .. و كنا بعد لحظات قصيرة في عجلتنا الضيقة على الطريق الصخرية المشعثة نستقبل الجبال الشاخحة التي كانت تبدو من بعيد وكأنها اسوار هائلة تسد علينا طريقنا .

و كنت فرحاً للغاية ، التهم بعميوني كل الاشياء التي كنت اصادفها على الطريق ولم يكن ليزعجني سوى التفكير بين آن وآن بعصابات الاشقياء ، هؤلاء الذين اصبحوا في ظني كشيء حقيقي لا يستبعد ظهوره في كل لحظة .. العجلة بطيئة السير لاتستطيع الهرب ، والحوذي ليس هو ذلك الرجل الشهم الذي يعتمد عليه في مثل هذه الاحوال ، والمسافرون جلهم من النساء والاطفال ، وعلى هذا فكيف يكون الخلاص من شر المجرمين ان وقع المحذور؟!

وفجأة لمحت شرذمة من الفرسان المدججين بالسلاح تعترض طريق القافلة

فتعلقت برداء جدتي فزعاً ، ثم دسست رأسي في صدرها وانغمضت عيني ..
وسمعت الحوذى يقول :

— هذه اول (دورية) تصادفها من رجال الدرك وقد تكون الاخيرة ..
وقهقهة احد المسافرين فاطمأن قلبي ورفعت رأسي لالتنفس الصعداء ..
وسارت الامور سيرها الطبيعي ..

ولولا تدخل اخي فيما لايعنيه من الامر لوصلنا (النبك) دون حادث
يذكر .. فلقد اراد ان يأخذ مكان الحوذى في قيادة العجلة ، ولكنه ما كاد
يمسك بالعنان حتى جمحت الجياد جموحاً هائلاً واضطرب سيرها .. ولولا براعة
الحوذى الذي استطاع بسرعة خارقة ان يوقف العجلة وان يعيد الى الجياد
صوابها واطمئنانها ، لاصبحنا في قعر احد الاودية وكان ان نذرت جدتي صيام
ثلاثة ايام ! ..

ودخلنا النبك مساء ، وخرجنا منها في الصباح ، ولا اذكر خلال اقامتي
فيها سوى مياهها الباردة ، وسلة من المشمش اكلناها ونحن نركب العجلة ،
وحمداً لآخي اهتمامه بامرنا نحن الذين لم نعرف الجوع الا في عهده ..
والجدير بالذكر هنا ، ان اخي استطاع ان يوفر من النقود التي سلمت
اليه للانفاق علينا في هذه السفرة مبلغاً لا بأس به ، اعاده الى ابي فور وصولنا
الى حمص .. ولا ادري اذا كان ابي قد شكر له اقتصاده وحسن تدبيره وعلق
على صدره الوسام الذي يستحق ! ..

الطريق كلها متشابهة ..

فلا شيء غير الصخور والادوية ، غير الهضاب المرتفعة الجرداء تحدها
مجري السيول ولعل الطبيعة الخرساء قد اثرت في نفوس المسافرين فجعلتهم
يحاربونها بالصمت ، يغمضون اعينهم تاركين لاحلامهم ان تنقلهم من الواقع
الممل الذي يعيشونه ، الى ما هو اجمل وامتع من حياتهم القابلة ..

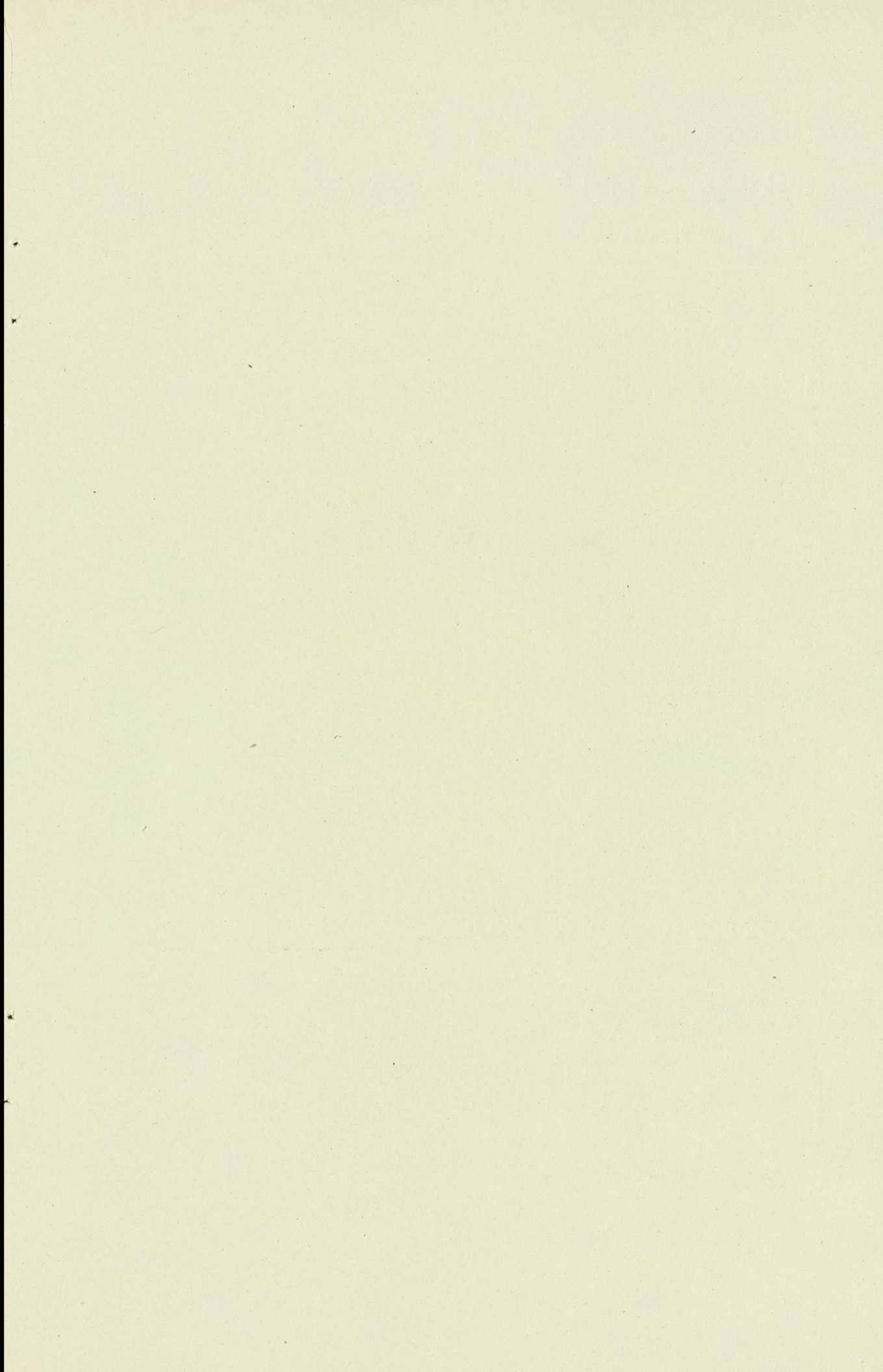
وامضينا ليلتنا الرابعة في (حسياء) في تلك القرية الجافة القذرة ، ذات
الماء الآسن .. لا ادري ، اولا استطيع ان اتصور كيف ينهل الانسان
والحيوان معاً من ذلك المستنقع الذي تمكث فيه مياه الامطار طوال
الصيف !..

القافلة تمضي ، والديوك تصيح وليس من الفجر الا الغبش ..
وعند شروق الشمس كنا نستقبل السهول الواسعة ذات التربة الناعمة الحمراء
الممتدة امامنا على مدى النظر ..
لقد بلغناك يا حمص ..

فهذه (عيدان ابي صبي) الفقيرة العارية تنتصب على طول الطريق كصف
من الشحاذين يطلب الصدقة ..

وهذه حقول البطيخ ترفل بالاخضر النضير من اثوابها ، وما الذهبوب
الرياح الباردة الرطبة ومزامير الرعاة تنطلق من بعيد ممزوجة بنباح الكلاب ..
لا استطيع ان اعبر بصدق عن العواطف التي خالطت شعوري وانا اسير
كالحالم في الزقاق الموصل الى دارنا .

فكل ما تراه عيناى كان يلتصق بي كجزء من كياني ، كنت احسه من
نفسي من حياتي القليلة التي عشتها فيه ..
حتى العصافير التي كانت تنتقل على الميازيب وتسقسق بفرح وغبطة ، كنت
افهم جيداً لغتها الحلوة كأنما اعطيت قدرة سليمان ..
ودخلت الدار وانا لا اصدق انني حقيقة قد عدت ..



اصابة بالملاريا

كان اول عمل قمت به عقب عودتي من دمشق هو تنظيم (الحوض) (١) ..
فلقد قسمته الى عدة (مساكب) كما تقسم البساتين ، وجعلت له سياجاً
من قضبان العليق ، وزرعت فيه الخيار والكوسا وكل ما اشتهي واحب من
النوع البقول ..

لاشيء اجمل من النش وهو يشق برؤوسه القوية الطرية التربة الحمراء
الرطبة ويتناول نحو الضياء والشمس .. وليس ما يعدل في لذته ان يتعهد
المراء النبات الذي يزوع بيده ، وان يراقب نموه وتطوره ، .. فوراء كل
ورقة وبرعم وزهرة حلم ذهبي ينشي القلب ، وامل براق يحمل الفلون ولون
من الوان السعاده .. . على ان الشيء الذي كان يزعجني هو قطتي
(فلة الثانية) .. .

هذه القطة الرعناء التي ظنت على ما يبدو اني لم انظم الحوض الا لاجعل
منه مسرحاً لالعابها الطائشة .. .

(١) لقد استعملت كلمة الحوض بمعناها العامي الشائع اي قطعة من صحن
الدار تخصص عادة لبعض المزروعات .

قلم يكن ليحاولها الا ان تتمدد في مسكبه (الذرة الصفراء ، وتداعب
ذيلها الاسود المعقوف - كقبضة عكاز من الابنوس مداعبة شرسة وكأنه
شيء غريب عن جسمها ... على ان البلاء الاعظم كان يجيء عندما تحلق في
سماء الحوض فراشة او يمر به صرصور ، ففي مثل هذه اللحظات السود كنت
لاستطيع الا ان اغمض عيني ! ..

كان من الممكن الاستغناء عن القطة في سبيل سلامة الحوض ، ولم يكن
ذلك ليكلفني اكثر من وضعها في كيس من القنب والقائها خارج المدينة
كما فعلت بغيرها من القطط مرات عديدة ، ولكن مرضي المفاجيء حال
دون ذلك : فلقد استيقظت ذات صباح فرأيت نفسي مثقل الجسم مضجع
الحواس ، احس في في طعم المرض ، وكان ان لزمتم الفراش طوال الصيف ..
لم يعد لشيء ادنى قيمة بنظري ، لا الحوض ولا القطة ولا اصدقائي
الاطفال ولا اية متعة من المتع الكثيرة التي كانت تحفل بها حياتي الصغيرة ،
وكل ما حولي متشابه جاف لا يحمل اي معنى من المعاني الجميلة التي كانت
تزخر بها نفسي ، ولا يوحى بشيء على الاطلاق ، فكأنما الحياة قد اصبحت
بالعقم وخلت من كل ما يثير المشاعر ...

وكانت جدتي تجلس حذوي كل الوقت ، ويدها المعروقة اليابسة مسمرة
على جبيني الملتهب وعيونها عالقة بذلك الجسم الضئيل الممدد امامها .. انها
تسألني ابدأ عما اشعر به ، وانه لسؤال غريب فأنا لا اشعر بشيء ، فلقد كانت
الحمى تمتص حياتي ببطء ودون ما الم ..

مسكينة جدتي ، لقد كان يمرضها ان تراني مريضاً ، انها تتنهد بعمق
وتغرق نفسها بدخان نار جيلتها ذات القرفرة العنيفة والرأس المشتعل الذي
يبدو وكأنه كوخ من القش تأكله النيران في يوم عاصف ..
لقد كنت اثناء مرضي قوي الصلة بالماضي الذي عشته مع امي ..

فما اكثر ماذ كرتها ، وما اكثر ما افتقدت عطفها وحنانها ، كانت دائماً
تتمثل في خاطري كشيء مازال يحتفظ بوجوده الحي رغم الموت ..
فمنذ سنة تقريباً كنت احس دفء جسدها الناعم وهي تشدني اليها بتحنان
وعطف لتطبع علي وجهي قبالتها المنعشة قبل ان اغمض عيني للنوم ، و كنت
اسمع صوتها العذب يسأل بلهفة : اين انت ياماما؟..

و كنت اراها وهي تطل بوجهها المشرق من وراء الباب لتفتقدني بين
الصبيه اللاعين ، لتملأ عيونها بمرآى فلذة كبدها ، لتسأ كد من ان قلبها الصغير
الذي يجري على الارض ، لم يصب بسوء .. او اه ...
ما احوجني الآن الى عطفها ورعايتها ، الى قبلة واحدة من تلك القبلات التي
كانت تررعها علي وجهي بغزارة و كيفما اتفق ..

لقد عادني بالامس الطيب (لوقا) فذكرتني رؤيته بوقاة امي ..
ولو كان الامر بيدي لفضلت الموت علي ان اراد ، ولكن ثقة ابي بهذا
الطيب لم يكن ليضعفها شيء ..

اذكر انني دخلت ذات يوم حجرة امي فسمعت الطيب (لوقا) يهمس في
اذن ابي بكلمات غامضة لم افهم منها شيئاً ، ولكن صورة ابي كانت توحى بان
الامر في منتهى الخطورة وكانت امي ممددة في فراشها وقد اغمضت عينيها
نصف اغماضة وكان صدرها يعاو ويهبط بشكل عنيف وكانت احدي يديها
مرشوقة على طرف الفراش والاخرى وراء رأسها على الوسادة .

وكانت جدتي تجلس بعيداً عنها ، مكتئبة حزينة ، تنفث الدخان مطرقة
الى الارض ، كأنما تنوء بمحمل ثقيل ولاحظت انها تلتقط دموعها الغزيرة
الصامته بمنديلها الابيض الملتف حول رأسها وتردد دعاء دينياً .

وقفت طويلاً وانا اجيل الطرف بين امي وجدتي ، وفجأة رأيت امي

تفتح عينيها وتنظر الي نظرة مديدة جامدة ، ثم تشير الي باصبعها ان
اقرب نحوها ...

واحسست بيدها الباردة تمر على جيبيني وتعبت بنحصلات شعري ، وسمعت
تهتدة حاوة تنطلق من صدرها المتعب ، ثم رأيت يدها تسقط على الارض
يشدة كقطعة من الخشب ...

لا ادري ما الذي جرى بعد ذلك ، فلقد اخرجتني جدتي من الغرفة
باسلوب لبق ولكني لاحظت ان موجة طامية من الذعر قد اجتاحت جميع
افراد الاسرة ، وان شيئاً غير عادي قد حدث في بيتنا ...

وبيثما كانت امي تجهز للدفن ، كنت انا وشقيقتي الصغرى (س) التي
كان لها من العمر اربع سنوات نقصد احد المساجد لنوزع على الفقراء بضعة
ارغفة ونطلب اليهم الدعاء لامنا بالشفاء ..

ولكننا حين عدنا الى البيت لم نجد امنا في فراشها ، وسألنا عنها فقبل لنا
انها ذهبت الى السوق لتبتاع لنا ثياب العيد ، وكان الجميع يبكون ،
وانتظرنا عودتها ..

انتظرنا طويلا ..

ومر العيد ..

وعيد آخر ، ولم تحضر ..

بيد اننا مع تعاقب الايام نسينا انه كانت لنا أم ، وانها ذهبت الى السوق
ولم تعد ..

مازلت في جحيم الحمى وزمهريرها ، ومازات اطعم اللبن وحده ،
واتجرع محلول الكينا ثلاث مرات في اليوم ، ثم اغيب عن الوجود بضعة ايام ..

وعندما كنت اصحو ، وتسير صحتي نحو التحسن ، كانت تسليني الوحيدة
ان اصيخ بسمعي الى جدتي لاسمع منها حكاية ..

كان ما كان يا أديب الزمان ..

كان رجل من الاشرار اسمه (عو كر) ..

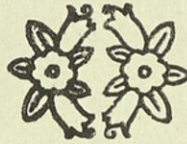
ويا لهذا القول ما كان أجمله من فمها الواسع ذي الشفاه الرقيقة المغضنة
والاسنان التي لم تبق منها السنون الطويلة الا اروماتها النخرة ..

مازلت احتفظ في ذاكرتي بصورتها الطريفة كأنما اراها الساعة .. كانت
تجلس حدوي على عجزها كالقطة واضعة ذقنها على ركبتيها المنتصبتين على شكل
زاوية ، وعيناها الصغيرتان البراقتان تنظران الي بحب وعطف ، وخصلات
شعرها الاثيب المصبوغ بالحناء تبرز من تحت منديلها الابيض مضطربة
مشوشة ، كأنما تشير بوضوح الى ان صاحبها ليست على شيء من الاهتمام بنفسها ..
ولا ادري اذا كان لجدتي نفس تعيش من اجلها ، ولكنني اعلم يقيناً انه كان
لها قلب يغمر الجميع بعاطفة من الحب لا تنفد ، وان حياتها الطويلة التي اربت
على مائة عام ، لم تكن لها بل للناس ..

استيقظت ذات صباح وانا اشعر لاول مرء ان شهيتي للطعام جيدة للغاية ،
ولكنني لا اريد اللبن ، بل اريد شيئاً آخر بما يأكله الاصحاء . وهمست في
اذن جدتي اطلب (فطيرة) ولما علم ابي ان جدتي قد اطعمتني ما طلبت ضرب
كفأ بكف وصاح مغضباً (لقد قتلت الطفل يا شيطان) ولكن جدتي التي
كانت تعتقد ان الطعام هو الوسيلة الوحيدة للحياة ، لم تكترث لغضبه
واستمرت تحقق رغباتي غير عابئة به ، وما هي الا بضعة ايام حتى رأيت
نفسي قادراً على الركض واللعب ..

وعندما فتحت المدارس ابوابها وجدتني احتل مقعدي بين الطلاب متمتعاً
بصحة طيبة هل اقول انني لولا سذاجة جدتي او لولا حكمتها ، وعدم
تقيدها بتعليمات اطباء ذلك الزمان ، لمت بفقر الدم وهم يحسبون انني
قدمت بالمalaria ؟ .

لو كانت جدتي الآن على قيد الحياة لاستحقت مني اعظم الشكر ، اما
وانها ماتت فلا اقل من ان أضع على قبرها غصناً من الآس . .



انه ابوغازي

كنت اراه عصر كل يوم جالسا امام بيته يراقب دجاجاته وهي تدرج
في ارض الشارع باحثه عن طعامها بين ارجل الناس ..
وكان في الثلاثين من العمر ، قصير القامة غليظها ، ذا وجه صارم التقاطيع
وحشي الملامح ، ولحية سوداء خشنة كاحية معزاة ...
اما عينه الوحيدة التي كان يحدجها الناس بنظرات مليئة بالحقد والكراهية
فكانت في التماعها الشرس كقبس من جهنم ...
كنت ابغضه الى الحد الذي لا يستطيع معه ان اثبت نظري في وجهه وغالباً
ما كنت اسلك الى بيتي طريقاً آخر كيلا أمر به فتقع عيني عليه ...
ولعله كان يبادلني بغضاً ببغض ، فلقد سمعته مرة يقول لاحد جلسائه :
مهما يحاول الدجاج في الارتفاع في طيرانه فان حده الاقصى قمم المزابل .
وقال مرة ثانية ، لا يكفي ان تبعد الخنافس عن طريقنا فان لها من
الرائحة مايشعر بوجودها ...

و كنت امضي في سبيلي غير مكترث لاقواله ، لاعتقادي انه انما يحاول
في ذلك ان يجبرني الى مشاجرته ولم اكن الوحيد الذي كان يتعرض لمثل هذا
من سلاطة لسانه ، فان معظم سكان الحي كانوا يتعرضون لما اتعرض له ،

ولقد نشبت بينه وبينهم مشاجرات كثيرة ادت الى دخوله السجن مرات عديدة ، بيد انه لم يرتدع ولم يكن للسجن اي تأثير في التخفيف من شرارته .

وحدث مرة ان لزم الفراش لمرض الم به ، فما عاده احد من جيرانه . وربما وجدوا في هذه المرضة نوعاً من الاجازة ، فابتهلوا الى الله ان يطيلها ، وان لا ينهيا الا بما يفرحهم .. ولكنه عندما شفي من مرضه عاد الى الشارع وهو اشد شراسة مما كان قبل ان يمرض ...

ودشن صحته الغالية بقطع شجرة الاكاسيا التي تقع على الرصيف مقابل بيته ولما سئل لماذا فعلت ذلك ؟ اجاب وهو يلوح بعصاه الغليظة بين اصبعيه .. لقد قطعها لاتخلص من الناس الذين يجتمعون تحتها ...

ولو بقيت هذه الشجرة في مكانها لادى الامر في النهاية الى قطع رؤوس بعض الناس ؟ ... فايها احسن ؟ ...

وذات يوم بينما كنت عائداً الى بيتي اذا به يعترض سبيلي بشكل مفاجيء ويقول :

صباح الخير يا جار .

ودهشت اذ سمعته يحدثني بتلك اللهجة الرقيقة المهذبة وقلت :

— صباح الخير .

فقال : — لي عندك حاجة .

تفضل ماهي ؟ ..

— انها لاتتعلق بي شخصياً ، وانما تتعلق بالوطن ، فاذا كنت تحب وطنك

حقيقة اجبتني الى ما اريد .

وكدت انفجر ضاحكاً من قوله ، غير انني تذكرت ان بلادنا تخوض

الآن معركة حامية ضد الفرنسيين ، فالاضطرابات والمظاهرات والحوادث

الدامية تشمل جميع المدن السورية فقلت له :

كلنا نحب الوطن ونفتديه بارواحنا .

فقال وقد ارتسنت على وجهه ابتسامة عريضة تشير الى ان كلمتي قد

وقعت من نفسه موقعاً طيباً :

انا اعلم ان لديك مسدساً من طراز (كنت سميت) فهل تعبرني اياه؟ ..

فسألته مدهوشاً ؟ ..

— ولماذا تريد ؟

— من اجل الوطن ياخي ، واقسم بالله اني لن استعمله الا فيما يرضي

الله والناس .

قالها وصدق في وجهي كأنما يريد ان يعرف مدى تأثير كلماته في نفسي ،

ولما اطلت الصمت اردف يقول :

— اذا كنت لا تثق بي فسأضع عندك لقاء المسدس وهينة تساوي قيمته ...

والحقيقة اني كنت لا اثق به اطلاقاً وفي اعتقادي انه لم يلجأ الى هذه

المحاولة الا ليستولي على المسدس بأسلوب شريف وانه لم يحشر الوطن في الموضوع

الا ليجعلني تجاه امر يصعب معه الرفض .

وقلت له : ان المسدس الذي تطلبه مني لم يعد في حيازتي ، فقد بعته منذ

زمن بعيد ...

لم يقل شيئاً ولكنه حدجني بنظرة قاسية ثم غادرني وهو يتخطف في عرض

الشارع ، ويباعد بين قدميه قليلاً لتتخذ مشيته النمط (العريض) المعروف ..

وكان يرتدي سروالاً ازرق اللون ، وسترة عسكرية عتيقة ، ويضع على

رأسه طاقية بيضاء قد لف عليها منديلاً اصفر ترك له ذيلًا يتدلى على اذنه ...

لقد كانت هيأته توحى بانه على اتم الاستعداد لارتكاب جريمة ...

ودخلت البيت فامضيت نهاري اعمل في الحديقة ، ولم يكن ليتمني في

الحياة شيء كالعامل الزراعي ، هذا العمل الجميل الذي يمتزج مع طبيعة نفسي المشغوفة بحب الطبيعة والذي ينسني في غمرته الهادئة اللذيذة متاعب الحياة وآلامها ويمنحني من الرضا والسعادة الشيء الكثير ..

ولما جاء المساء خرجت قاصداً التنزه على ضفة الساقية ، ولكنني لم اكنه اخطو بضع خطوات حتى تأدى الى سمعي صوت طلق ناري صادر عن قلب المدينة فطلق ثان وثالث ورابع ... فدفعة غزيرة من الطلقات ..

ورأيت الناس يتراكمون باتجاه المدينة فركضت ورائهم دون تفكير ، فوجدت نفسي بعد حين ضمن فريق من المتظاهرين يتمركزون في نهاية الشارع الرئيسي الذي يتصل بالساحة العامة ، وكان هذا الفريق قد انفصل عن المظاهرة الكبرى بعد ان فرقها الفرنسيون برصاص بنادقهم ...

ولمحت بين هؤلاء ابا غازي وكان يتمنطق مجزام من الجلد الاسود ، وقد اسند ظهره الى شجرة ضخمة من الدردار وبدا هاديء النظرة ، ثابت الاعصاب لا يظهر على وجهه اي اثر للانفصال الذي كان يظهر جلياً على وجوه الاخرين . وكانوا جميعاً يتطلعون الى الساحة حيث وقعت المعركة الاولى ، بعيون قلقة ووجوه تتسم بالصلابة المزوجة بالالم العميق ...

ولكن ماذا يفعلون ؟ ... والحصاة لا تقاوم الرصاصة ، والسكين لا تثبت امام القذيفة ، والمقلع لا يسقط الطائرة .

وكان المساء قد بدأ يعتم ، حين ظهر القمر من وراء المدينة يرسل انواره المباهتة على ابنيها القائمة المطفأة الانوار وكان واسع الصفحة تتبعثر من حوله غيوم سوداء تضيء عليه الشيء الكثير من الكآبة ..

نعم ان القمر لم يكن جميلاً في هذه الامسية من ايار .. وفجأة صاح احد المتظاهرين ، هاهم قد جاؤا . والتفت فاذا بي ارى وهطاً من الجنود قد برز من فم الشارع وجعل يتقدم نحونا بسرعة .

واضطرب المتظاهرون ، وسرت في كيانهم . موجة طامية من الذعر . وما
ان هرب احدهم حتي كانوا جميعاً وراء جماعة اثر جماعة ...

وسرعان ما اقفر الشارع ...

وكان الوحيد الذي لم يهرب هو ابو غازي ..

وخالطني شعور بالخوف فارتبكت ، وهممت بالفرار ولكنني خجلت من

ابي غازي ، ورأيت ان اترث قليلا فلعله يسبقني الى الهرب ...

ولكن ابا غازي لم يهرب ، وظل واقفاً وراء شجرة الدردار ، ورأيته

يشير الى ان اختبيء في زاوية احد المتاجر المغلقة وسمعته يقول لي :

— لماذا لم تهرب كما هرب الآخرون ، فقلت له :

— ولماذا لم تهرب انت ؟ ..

فاجاب ببلهجة عنيفة ! انه لمن العيب والعار ان يهرب الرجل المسلح ،

فلدي مسدس وخمس قنابل استطيع بها ان اقاوم فرنسا ... وسألني :

اين مسدسك ؟ ...

فأجبت دون ان اعني ما اقول :

— انه في البيت :

فاجاب ببلهجة ساخرة :

الم تقل انك بعته منذ زمن طويل ... اكنت تكذب اذن ؟ ...

لم اجب ، فلقد كنت في حالة من الانهيار لم تعد تساعدني على النطق ...

وسك سمعي صوت خفق نعال الجنود وقعقة سلاحهم ، فاسندت ظهري

الى الباب ثم اغمضت عيني بانتظار ساعة الموت ..

وفي هذه اللحظة الرهيبه التي توقف فيها العقل عن كل تفكير ، كانت

تطفو على ذاكرتي بشكل سريع صور من احبهم من الناس ورأيت

فبين رأيت صورة شقيقتي الصغرى التي كنت احبها كما احب نفسي ، فاحسست
بدمعة حارة تطفر من بين جفني ..

وانبعثت من قلب السكون والظلام صوت ابي غازي الحشن الابح
يشتم الفرنسيين بكلمات بذيئة ثم سمعت دوي انفجار قنبلة ، ومرت لحظات
قليلة من الصمت الرهيب ثم انهال علينا الرصاص غزيراً كصيب من نيسان
وكانت المعركة ، واي معركة ؟ ..

معركة الرجل الفرد الذي ضخمت قواه الكرامة الوطنية ، فجعلته
يشعر بانه يحمل في كيانه الصغير قوة شعب بأسره .

لا ادري اذا كان الفرنسيون قد ظنوا انهم يخوضون ضدنا معركة ماجينو
دفاعاً عن فرنسا فلقد اضاوا السماء وزلزلوا الارض ، ومزقوا شارعنا
شر تمزيق ..

فلاشيء غير الدخان والنار وقهقهة القذائف ولاشيء ، غير حطام النواوذ
والأبواب يتطاير في كل اتجاه ...
وهل من شيء ؟ ..

عند هؤلاء الحمقى المجانين ، غير الدمار والموت ..
وفجأة احسست بشيء صلب يصدمني في كتفي ، فظننت انها حصاة ،
ولكن ما هذا الشيء اللزج الذي اشعر به يلتصق بقميصي ، وما هذا الطنين
المزعج الذي اسمعه في اذني لقد ثقلت اجفاني ..

ليتني استطيع ان انام هنا على ارض الشارع ...
واضطربت اقدامي ، ولم تعد تساعدني على الوقوف فاتكأت على الباب
بكل جسمي ...

لكأن احداً يضع رأسي على وسادة ...
ابن ؟ ...

كيف ؟ ...

لا ادري ؟ .

اشعر بانني ضمن سرير يتحرك ، سرير يمشي ويتكلم ..
ولاشيء بعد ذلك .

حدثتني مرضتي بعد بضعة ايام فقالت :

لقد حملك الى هنا رجل اعور ذولحية سوداء خشنة كاحية معزاة . فسلمك

الى الطبيب ثم عاد مسرعاً ولم أعد أراه ... فهل تعرفه ؟ ..

فأجبت والدمعة تترقرق في عيني :

يا للرجل الطيب ... انه ابو غازي ...

• • •

سوء الحظ

اعتاد الاستاذ نسيم ان يلصق بالحظ كل الاشياء التي لا تجيء وفق مشتهاه ولو علم ان الحظ لا يأتي من الخارج ، وانما هو وليد نزعات داخلية مصدرها الذات ، وان لهذه النزعات التأثير الاكبر في تكوين المستقبل ، وانها بقدر ما تكون واعية حكيمة يكون النجاح ، وبقدر ما تكون طائشة حمقاء يكون الاخفاق ، لما لعن سوء الحظ في كل مناسبة ولما عتب على الاقدار التي لم تنصفه كما انصفت زملاءه اساتذة التعليم الذين اصبحوا في المراتب العالية مدراء مدارس او اساتذة ثانويات في الوقت الذي بقي هو فيه كما كان قبل عشرين سنة ، يوم دخل سلك التربية والتعليم معلماً ابتداءً لصف الاول .

والحقيقة ان الاستاذ نسيم كان كلفاً للغاية بالعتب على الاقدار والشكوى من تصرفات الزمن وسوء الحظ ، ولكنه غير كلف البتة بالسعي للوصول الى غاياته وانجاز قضاياه ، فتبقى كل اموره معلقة في رأسه ، يفكر بها كثيراً ويدرسها بامعان وتدقيق ، منتظراً ان تحل نفسها بنفسها وتعطيه النتيجة التي يريدونها ...

وحين تأتي تلك النتيجة عكس ما كان يرجو ويأمل ، وهذا في الاغلب يلتفت نحو الحظ ليعطيه من لسانه ما يستحق بل اكثر ...

انه الآن في الخمسين ...

ورغم هذه السن التي خلفت وراءها الشباب والجمال حيث لا رجعة
ولا عودة ، فهو مازال يفكر بالزواج بذات الاسلوب الذي كان يفكر به
يوم كان في العشرين ...

وعندما سئل ذات مرة :

لماذا لم تتزوج حتي الآن يا استاذ ؟ . اجاب :

وهل فاتني شيء ؟ .. انني افكر بالموضوع ولا موجب للسرعة !

وما دام الاستاذ نسيم يفكر بالموضوع فالمسألة لم تعد بعيدة ..

ألم يقض ذات يوم كل نهاره وهو يفكر في اين يضع صورته ؟ . ايلقها
على الجدار في صدر الغرفة ام مقابل سرير نومه ؟ . وكانت النتيجة ان ظلت
الصورة بضعة ايام مرشوقة على المقعد تنتظر قراره الحكيم ...

اما قصة (ماء الزهر) التي ظلت مدة طويلة موضوعاً للتندر والتسلية بين
اصدقائه ، فهي لا شك امتع واطرف ...

لقد اعتزم مرة ان يسافر الى لبنان بقصد التنزه ، فجعل يهيه نفسه
لتلك الرحلة هنيئة من يود السفر الى القطب ! ..

وكانت حقيقة امتعته تنبش ويعاد ترتيبها في اليوم الواحد عشرات المرات
اذ لم يكن من السهل عليه قط ، ان يحدد بالضبط الاشياء التي يمكن ان
يحتاج اليها في سفره ورغم ذلك ، فلقد اضطر الى الرجوع من المحطة ، وتأجيل
السفر الى وقت آخر ، لانه فطن وهو امام شباك قطع التذاكر انه نسي
ان يحمل معه زجاجة (ماء الزهر) هذه الزجاجة التي اعتاد ان يتجرع منها
فنجاناً مساء كل يوم قبل النوم ...

وعبثاً حاول احد اصدقائه من رفقاء السفر اقناعه ان الامر ابسط من
ان يؤجل السفر بسببه ، وان ماء الزهر في لبنان اكثر من ماء الشرب

عندنا .. فهو يريد هذا الماء الزهر بعينه ، المقطر تحت اشرافه ...
ولكن هل سافر في اليوم الثاني ؟ . كلا . فقد وجد بعد التفكير
الطويل ان بقاءه في بلده خير له من تحمل مشاق السفر ونفقاته ...
وها هو الان ازاء مشكله . ، مشكلة زواجه التي رافقته من مطلع
شبابه حتي الساعة ، دون ان يجد لها حلا يرضيه ...

وراح يفكر بالموضوع تفكيراً جدياً .. ولعل للحلم العاطفي الذي حلم
به ليلة امس وكانت بطلته فتاة كالزنبقة لا نظير لها على الارض اثره الفعال
في نفسه .

نعم ، انه الان يرغب في الزواج رغبة شديدة ويتوق اليه بكل جوارحه
ويتمنى ان يحدث اللحظة بلا ابطاء ولا تريث . ولكن ابن الفتاة الجميلة
الفاضلة التي لا عيب فيها ولا نقص ، والتي تصلح بحق ان تكون
شريكة حياته ...

هنالك أربع فتيات من بنات جيوانه جديرات نسبياً ان يحملن لقبه
فليستعرضهن ، وليبدأ بزینب ، وزینب هذه في العشرين تقريباً بمشوقة
الجسم ، وردية اللون ، عسلية العينين ، لها مشية موقعة كالرقص ، وحركات
بارعة تم عن رساقة اصيلة ، خالية من كل تكلف ...

ولكن عيها انها شديدة الاهتمام بمظهرها الخارجية ، شغوفة الى حد
الافراط بالتجمل والاناقة انها تبدو دائماً وكأنها (موديل) سيار لعرض
الازياء وهو بالطبع لا يريد لنفسه زوجة كهذه تمضي كل يومها ، اما ماثلة
بين يدي الخياط او واقفة امام المراة تعالج وجهها .

اما الثانية فهي هيفاء ، وهيفاء تشارف الثلاثين ، ليست صغيرة
على كل حال ... ولكنها ذات جاذبية فعالة وسحر خاص ، وهذه ميزة
فالجمل لا قيمة له الا بمقدار ما يؤثر ...

بيد أنها تميل الى الرصانة والاعتدال وتبدو متوقرة اكثر مما يجب...
ثم انها تجنح الى البساطة المتناهية فيما ترتدي من البسة ، واخوف ما يخاف
ان تكون تلك البساطة ناتجة عن الالهال والكسل...

وامرأة هذا شأنها لا شك ستكون متعبة ولن تصلح قط لتدبير شؤون
بيتها وتربية اطفالها... وكل عيب في المرأة يمكن ان يستسيغه الرجل ويضمه
الا الكسل... فهو الداء الذي لا يرجى له شفاء ، وما اكثر الرجال الذين
اصبحوا نتيجة لاهمال نساءهم « نساء في بيوتهم... كلاً، انه لا يرغب في زوجة
لا تمتاز عن التمثيل في شيء سوى ان لها فماً يحسن الثروة والاكل وامه
الثالثة المسماة لطيفة ، فهي تكاد تكون حسنة من جميع الوجوه...»

غير انها من حاملات « الليسانس » في الفلسفة وهذا يعني بطبيعة الحال
انها من اللواتي يتقن فن الكلام اكثر من اي شيء آخر وانها تستطيع
ان تقهر خصومها بالرأي في سهولة ويسر وتعرف كيف تطرح المشاكل ،
وكيف تعالجها بالمنطق ثم كيف تخرج منها بالحلول...

وازاء ذلك فمن ذا الذي يجسر ان يقول ان اللبن ابيض...

لقد سمعتها مرة تتحدث بالراديو بصوت عذب ولهجة لا تخلو من دلاعة
الاورانس.. وكان حديثها يدور حول الام المثقفة واثرها في تكوين اخلاق
الطفل.. وانه لكلام جميل...

ولكن الشيء المعروف ان بائعي الحلواء ازهد الناس باكل الحلواء ،
واغب المطربين لا يغنون لانفسهم واتما يغنون للناس...

كلاً ، انه لا يرضى قط بالزواج من فيلسوفة ، تتاجر بالمثل وتبيع
الآراء والافكار ، وخير منها على ما يعتقد ، كتاب في الفلسفة وعلم النفس
يفتجه متى شاء وحين يمله يرمي به الى الرف ، وينسى وجوده...

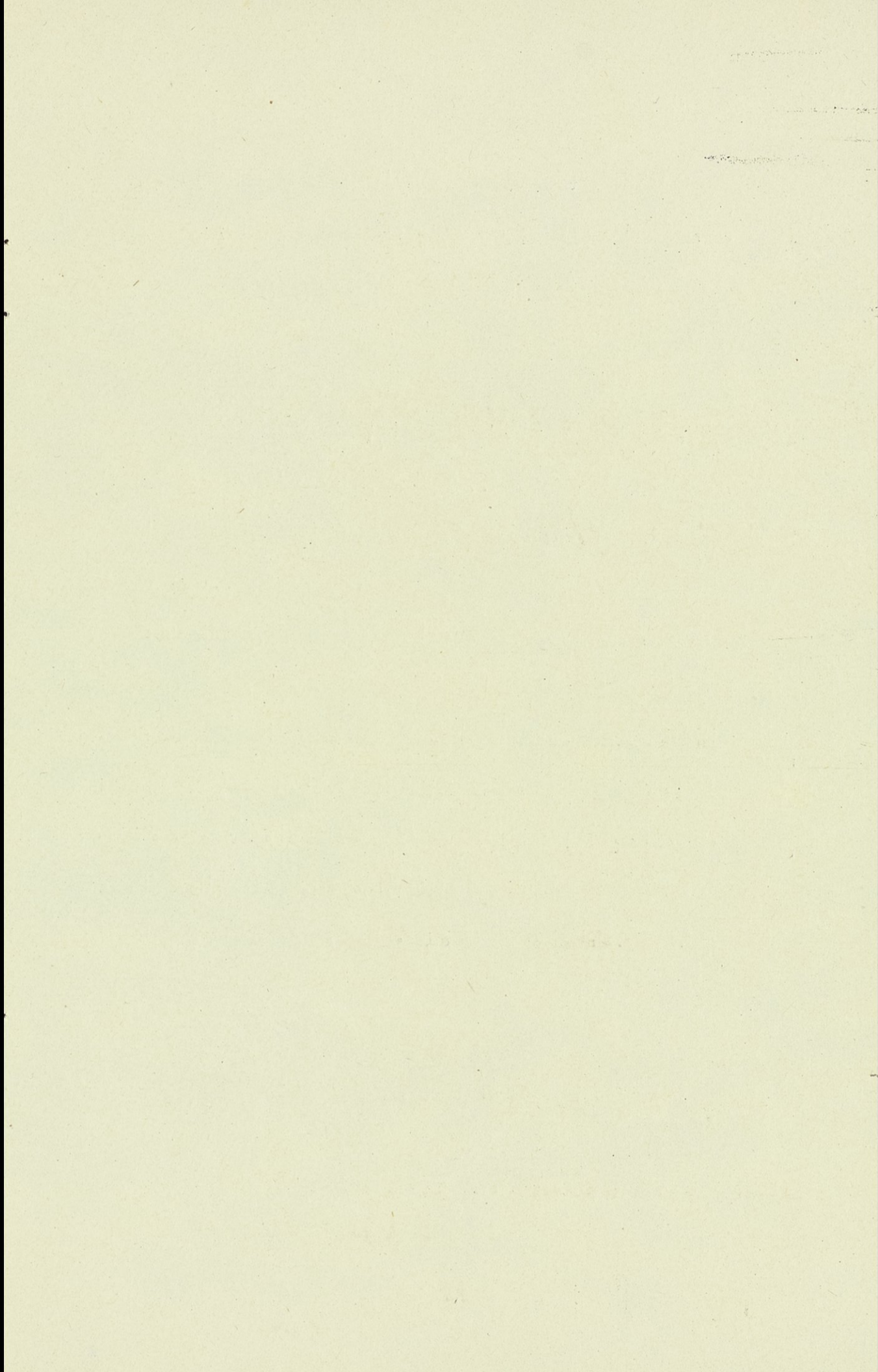
بقيت عصام... وعصام فتاة في مقتبل العمر ، لها من الفتنة والجمال

ما لا يمكن ان يوصف ...

امرأة كآلهه ، يغشي جمالها البصر ، فلقه قمر ... ولكن الجمال العظيم
يحمل معه دائماً المتاعب العظيمة ، ثم انها - والله اعلم - ذات سمعة غير حسنة
كلا انه لا يتهمها بشيء ؛ ولكنه يرى الشباب يحومون حولها كما يحوم النحل
حول زهرة عطرة وهذا يعني انها ذات نظرة مشجعة وابتسامات لا تخلو
من معنى الاستجابة ...

وهل يستطيع هو الرجل المحكوم عليه ان يمضي كل نهاره في المدرسة
ان يقوم باعباء وظيفه حارس جوال ؟ ..
اوه ؛ لقد اتعبه التفكير بامور كهذه لا طائل تحتها فليفكر بما
هو اهم ...

وهنا يفتبه الى انه قد تأخر عن الدوام فيهب من فراشه مذعوراً ويرتدي
ثيابه ثم يمضي الى المدرسة بقلب واجف واقدام عمياء لا تدري اين تقع ...
وعندما يبلغ المدرسة يلقي المدير واقفاً بالباب فيستعيز بالشيطان ويسلم
ويدخل .. ولم يسأله المدير عن اسباب تأخره عن الدرس ، ولكنه هز
رأسه وابتسم .. والاستاذ نسيم لا يجمل معني هز الرأس والابتسام في مثل
هذه الاحوال ولكن ما عسي ان يفعل ؟ .
انه سوء الحظ ؛ سوء الحظ وحده ولا شيء سواه ..



* دجاجة ام سليمان

مسكينة ام سليمان ، لقد ظلت تبحث عن دجاجتها الضائعة وتبكي ...
حتى ماتت لم تترك احداً ما سألته عنها ، سألته بدموعها قبل لسانها .
ارأيت دجاجتي ؟ .

لقد خرجت ولم تعد ، هي بيضاء كالشاش ، ذات عرف احمر طويل
كعرف الديك .. انها تعرف البيت جيداً ، ولا ادري كيف ضاعت ،
اتقول انها ستعود . ؟ آه يا بني .. وانا اقول ذلك ، ولكن متي ...؟
وتضي ودموعها ملء عيونها ، تحمل نفسها على عكاز يرتعش تحتها ،
وتجرو اقدامها بعناء كأنما تجر شئاً ليس من جسمها ..

تتعب فتقف ، لتستريح او تسعل .. وقد تجلس على الرصيف ، لتبكي
او تنام ، تنام كالكرة ، اولها متصل باخرها ، راسها فوق قدميها .

(*) - نشرت هذه القصة في جريدة القافلة عام ١٩٥١ / في العدد
/ ٥٠ / تاريخ ٥ اكتوبر . كما نشرت عام ١٩٥٢ ضمن مجموعة قصصية صدرت
في دمشق باسم (درب القمة) .

اذكر ذلك لان احد المتأديين في القاهرة قد ادعاها لنفسه ونشرها منذ
عامين في مجلة المساء التي تصدر في القاهرة .

هي وحيدة ، قطيعة منبوذة ، لا تملك في العالم الحبيب ، غير تلك
الدجاجة . شد ما تؤلمني ذكرها ...

لو بقيت حية الى الان لو هبت لها سر با من الدجاج الابيض ، الف دجاجة
اذا شاءت ، حتى تقرر عينها ...

يالرعونة الطفل ...

كنت جالسا امام منزلي ...

امسك بيدي (نقافة) من المطاط محشوة بحصاة ...

اريد هدفاً اجر ب فيه قدرتي على الاصابة ...

انتظرت عصفوراً ، يحط على الميزاب ، فلم يجيء ...

ولكن دجاجة (ام سليمان) قد اقبلت بهدوء ، تنبش بمنقارها التراب ،

باحثة عن لقطة .. انها بعيدة ، لا يمكن ان تصاب ، لا بأس فانا لا اريد

قتلها ، ولتكن رمية بلا غاية ، ولا فائدة ...

وكانت حركة تافهة ، وصوت حصاة تطقطق على الارض . الدجاجة

تنقلب على ظهرها وتتنقض ، ثم تنهض على ارجلها وتسير ...

تسير نحوي متعثرة برأسها المثلث واجنحتها ترفرف فوق التراب وتثيرة ،

ثم تقع متخبطة بدماها قرب اقدامي .

وضعتها في صدري ، تحت القميص ، وجعلت اعدو ...

كل الازقة مليئة بالناس بالنوافذ ...

فالى الفضاء ...

وهناك ..

حيث يرقد الكل بصمت ، حيث لا عيون ترى ولا آذان تسمع ،

القيتها بين قبرين شائخين ، وابت مبلل القميص بالدم .

مسكينة ام سليمان ...

لقد ظلت تبحث عن دجاجتها الضائعة ويبكي ، حتى ماتت ...

بغلة العم عثمان

لم ينم العم عثمان ليلته الماضية ...

لقد كان يفكر في بغلته الشقراء ...

هذه البغلة التي اشتراها منذ خمس سنوات بمائة ليرة وكانت صغيرة ليس لها من العمر سوى ثلاثة اشهر ، فاعتنى بها عناية فائقة ، وراضها احسن روض ، وكان يعطف عليها ويحبها كولد من اولاده ، فلا يطعمها من الشعير الا اجوده وانظفه ، ولا يسقيها من الماء الا اعذبه وابرده ، ولا يسند اليها من الاعمال الا اخفها واسهلها ، ولذلك فهي ما زالت حتى الآن قوية البنية ، جميلة المنظر سليمة الاضراس .

ولكن الظروف الصعبة التي يعانها العم عثمان في هذه السنة بسبب القحط وقلة الموارد ، هي التي جعلته يفكر بالتخلص منها باية وسيلة وكان ان عرضها امس للبيع ، فلم يتقدم لشرائها سوى الحاج (جاء الله) الذي دفع له بها خمس ليرات فقط .

وقال له وهو يسمعه رنين النقود في جيبه : اني ادفع ثمن الجلد ، اما اللحم والعظم والحوافر فأوصلها الى بيتك فلعلك تحتاج اليها في هذه السنة المقحوظة .

ثم اطلق ضحكة وقيحة كان لها اسوأ الوقع في نفس العم عثمان ، فلقد جعلته يدرك ان المسألة ليست على شيء من الجد بيد ان ذلك على الرغم مما فيه من الم ومرارة ، لم يكن هو السبب في ارق العم عثمان ، فالى الشيطان الحاج جاد الله وليراته القذرة . واكن السبب هو انه قد اصبح مضطراً الى تسريحها ، فالعلف الذي كان مخزوناً لديه من العام الماضي قد نفذ جميعه ، فلا شعير ولا تبين ، ولا زؤان . والارض لم تنبت هذه السنة عشبة واحده وانه على كل حال ليس مجبراً على شراء العلف بنقوده المدخرة لمثل الايام الصعبة ليحفظ حياة بعغله .

نعم ، انه لمن المؤلم جداً ان يتخلى عنها بعد تلك العشرة الطويلة ، التي جعلتها كجزء من نفسه ، ولكن ماذا يفعل اذا كانت الظروف قد فرضت عليه ذلك . ، فهو بين امرين اما ان يقتلها او يسرحها والتسريح لا شك اهن من القتل .

بمثل هذا يفكر العم في ليلته الماضية ولما بزغت الشمس نهض من فراشه متاثقاً فلبس ثيابه ثم توجه نحو الحظيرة حيث كانت البعلة مربوطة تنتظر العلف ، ولما رآته مقبلاً نحوها اقتربت منه محرمة ذيلها الاشقر الطويل في وداعة وتجب ثم حكّت رأسها بظهره ملاطفة مؤانسة وحمّمت في اذنه معبرة عن فرحها بقدومه ولكن العم عثمان لم يهش لها كما عودها في السابق ولم يربت على صدرها العريض ذلك الربت المطمئن المشحون بالعواطف الطيبة بل انصرف عنها الى الرسن ففك عقده ثم قادها الى الشارع وهو صامت مطرق .

لقد كان سكان القرية جميعاً يعرفون جيداً الى اين يمضي العم عثمان ببغلته الشقراء وهو يمر بها امامهم في طريقه الى المنحدر ولذلك ظلوا صامتين ولم

يعلق احد منهم على الحادثة بكلمة واحدة بل جعلوا يرمقون البغلة بنظرات
كثيرة مشبعة بالرتاء .

وسار العم على الدرب الاغبر ، سادراً مطرقاً لا يلتفت الى احد وكانت
البغلة تجر حوافرها وراهه بجهد ومشقة وكأنها لم تكن راغبة في السير باتجاه
يعاكس طريق المزرعة ، تلك الطريق التي لم تسلك طريقاً غيرها منذ عرفت
القرية ، ولكن ما يفيدها . ان تحرن ؟ فالعم عثمان يمضي بلا توقف ، وعليها
ان تسير وراه طائعة او مكرهة .

وهناك ضمن منحدر صخري تنهص في قعره شجرة يابسة من البالموط
ذات اغصان عارية كالاذرع المرفوعة الى السماء في ابتهاج وتضرع ، في هذه
الموقع الحشن الموحش المليء بهياكل الحيوانات اهلكها الجوع والعطش ، وقد
اعتزم العم عثمان ان يسرح بغلته .

ووقفت البغلة امامه بضع لحظات تنظر اليه بعينها الواسعتين والكانها
تسأله عن سر مجيئه الى هذا المكان ، ثم دفعت رأسها الى الارض ومضت
تبحث عن العشب بين الصخور الجرداء واطلق العم من صدره تنهيدة طويلة
حارة ثم قال بصوت مسموع كأنما يتحدث الى احد مهوراً عمله .

كانت عنابر القرية مفعمة بالشعير والقمح وكانت ارضها الخضراء المزهرة
مرتعاً طيباً للقطعان والخيول ، وكانت يبايعها الثرة تتفجر كالفضة المذابة
فتسقي الزرع ، وتمنح الفلاح الخير والبركة ، كانت كل الاشياء تبدو
ضاحكة مشرقة يشيع منها الرضا وتغمرها السعادة ، فالنملة والصرصور
والفراشة ، النحلة والعصفور والجراد ، كل الكائنات الحية حتى الحشرات
كانت تعيش هائلة سعيدة ، تحت ظلال وارفة من حنان امنا الطبيعة التي
شهب لنا الحياة والرزق اما الآن فهل ثمة غير الشمس المحرقة والارض الموات

ابن الشعب الناهي والزهر الموفق ، والثمر المضيء ابن الاشجار والظلال ابن
الضفاف الخضر ، ابن الغدران ؟ لقد نضب ماؤها وجفت مجاريها وهلك
سكانها فلا سمك ولا خفدع ، ولا سرطان ، لا شيء غير الحصى الا صفر الجاف
والاوكار الحاوية المهجورة .

ايتها البغلة الطيبة يا صديقتي العزيزة الوفية سأتركك هنا لتعيشي وحيدة
لا تأسفي لفراق القرية فلم يعد في القرية ما يؤسف له .

قال لها وهو يربت على صدرها بقوة كأنما يشجعها على استقبال مصيرها
الاسود ثم تحول عنها ماضياً في اتجاه القرية ، وكان يلتفت اليها بين آن وآن
ليرى ما تفعل ، اما هي فكانت تنظر اليه منصوبة الاذنين في استغراب
ودهشة ، وعندما غاب عنها وراء المنحدر اطلقت صهيلاً حاداً تجاوبت
اصداؤه في ارجاء المكان عنيفة مرهبة وكان لذلك الصهيل اثره العظيم في نفس
العم عثمان فلقد شعر برعدة بسري في عرويه واهتز كيانه . فراح يعدو
مذعوراً كالمهارب من الموت .. لم ينم ايضاً ليلته هذه فلقد ظل صهيل بغلته
الشقراء الحاد الرهيب يملأ اذنيه ويدوي في رأسه بلا انقطاع طوال الليل ،
وفي الصباح كان يأخذ طريقه الى المنحدر حيث ترك البغلة ، وقد انعقدت
بين حاجبيه تقطبية حازمة .

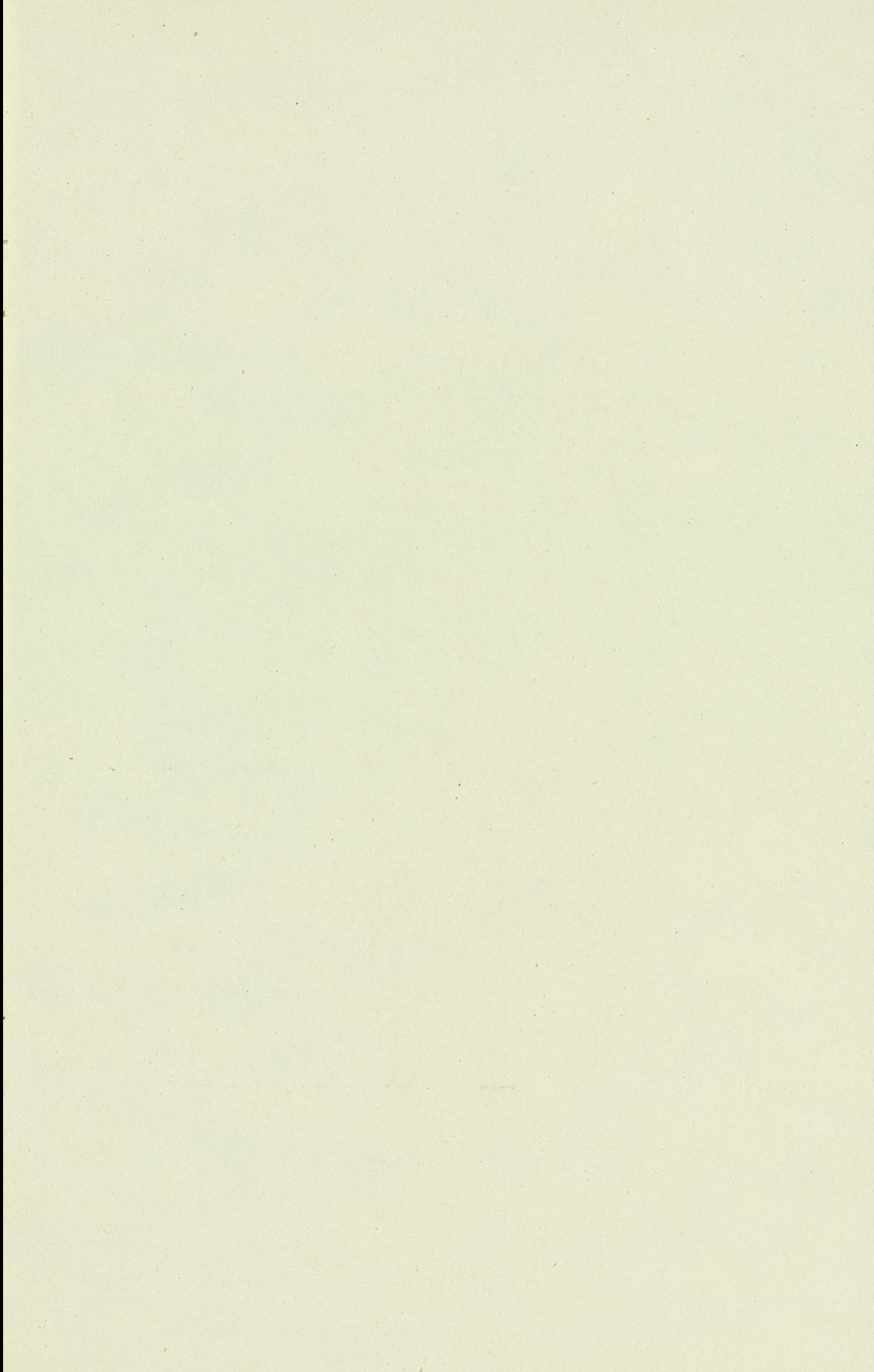
وسأله الحاج جاد الله وقد رآه عائداً بها الى القرية ! لماذا سرحتها اذن
يا عم عثمان ؟ ! فلم يجيب العم ، ومضى في طريقه كأنه لم يسمع السؤال ،
غير انه لم يستطع الا ان يبصق على الارض ، والا ان يدوس البصقة بقدمه ،
ويتمتم بشتائم غير مسموعة .

سجين الدرار

ملءة ذات فصل واحد

أشخاص المسرحية :

ع. ٥. سنه	عباس افندي
» ٤٠	سكينة
» ٢٠	سعاد
» ٣٠	زكي افندي
» ٣٠	عبد الحسيب



المكان : غرفة في بيت عباس افندي

الزمان : صباحاً

(تبدو السيدة سكيئة زوجة عباس افندي منهمكة في عملها في الخياطة ، وحذوها بنتها سعاد تعتنى بزینتها كأنما تتهيأ لاستقبال احد ، الغرفة مضطربة ، ففي الجانب الايمن طاولة قصيرة القوائم عليها مكواة ، والى اليسار كوميدينا فوقها ا راديو وعلى الراديو هاتف ، وهناك مشجبان علقا عليها اردية نسائية لم تكتمل خياطتها .)

سكيئة : ألم يستيقظ ابوك يا سعاد ؟ ...

سعاد : كلا ، لم يستيقظ بعد .

سكيئة : لقد اوصاني ان اوقظه باكراً ...

سعاد : ولماذا ؟ .. دعيه نائماً ، حتى الظهر اذا امكن . فاعصابنا تحتاج الى الراحة والهدوء . ثم ان خطيبي زكي افندي سيزورنا اليوم ، والافضل ان يكون ابي نائماً ... ان خطيبي يتضايق من وجود ابي في البيت بصورة دائمة ... والحق معه ، فابي لا يترك له اية فرصة للتحدث الي على انفراد ...

سكيئة : لقد لفت نظره الى هذه الناحية ، وافهمته ان من المستحسن ان يترك الخطيب وخطيبته وحدهما ولو بعض الوقت ، فأجاب وكان الشيطان قد تلبسه : انا لا احب الميوعة والانحلال ، ولا تعجبني اخلاق شباب هذا العصر ، فالبنت لم تصبح زوجته بعد ، وليس له الحق في الاختلاء بها .. واذا كان يرضيه ذلك فانا على استعداد لفسخ الخطبة ... وانتقد بشدة تلك الوردة الحمراء التي يضعها خطيبك في صدره

- سعاد : (تضحك) ...
- سكينة : ما الذي يضحكك ...?
- سعاد : سأخبره ان ابي لا يحب الورد الاحمر . . ويكره الاناقة كرهاً
شديداً . . . والافق حين يجيء لزيارتنا مرة ثانية ان يرتدي
ثياب شحاذ . . .
- سكينة : اوه . . كيف السبيل الى اخراجه من البيت . . .
- سعاد : الحل الوحيد لمشكلتنا معه هو ان تتوقفي عن عملك كخياطه
وتغلقي هذا المحل
- سكينة : ولكننا لانستطيع العيش بالراتب التقاعدي الذي يتقاضاه ابوك
والذي لايزيد عن مائتي ليرة في الشهر . . ان الخياطة تجعلنا نعيش
مرهفين بعض الشيء . . .
- سعاد : انه حين يشعر بالفقر والحاجة سيضطر الى الخروج من البيت
والبحث عن عمل يشغله كل الوقت
- سكينة : لا اعتقد ان هنالك قوة في العالم يمكنها ان تخرجه من البيت . . .
من هذا السجن الذي يجبس به نفسه برضاه واختياره . . .
الا تذكرين ؟ . . يوم تعطل الهاتف ؟ . . لقد كان الدواء ضروريا
لك فرفض ان يذهب الى الصيدلية لشراؤه . . . ولولا قدوم جارنا
عبد المنعم مستفسراً عن صحتك لقضيت ليلة من اسوأ الليالي . . .
- سعاد : الحقيقة ان حالته هذه لا يمكن ان يطيقها احد . . . فهو لا يكتفي
بسجن نفسه ولكنه يسجننا معه . . .
- سكينة : انت مخطوبة يا بنتي وستتزوجين عما قريب وتغادرين هذا السجن
الذي نسميه بيتنا . . . اما انا فلقد قضيت علي ان اسجن مؤبداً . . .
لا خلاص الا بالموت . . .

(یرن جوس الباب)

سعاد : من ؟ ..

صوت : (من الداخل) انا افتحی ...

سعاد : انه خالی عبد الحسیب (تخرج فتفتح الباب)

(یدخل عبد الحسیب)

عبد الحسیب : صباح الخیر یا اختی

(سکینه وسعاد ترحبان به)

سکینه : اطلت الغیاب یا أخي

عبد الحسیب : كنت مسافراً .. لقد استطعت ان اجد عملاً آخر بالاضافة
الی عملي فی الوظيفة .

سکینه : وما هو هذا العمل ...

عبد الحسیب : وكالة شركة ...

سکینه : اوه ... كل الناس يفكرون بالعمل ... كل الناس يشتغلون
الا زوجي ...

عبد الحسیب : اما زال مصراً علی عدم الخروج من البيت .

سعاد : كل الاصرار ... يقول ما الحاجة الى الاتصال بالناس اذا كان

الانسان يستطيع العیش وحيداً .. والمدنية الحديثة اصبحت

قادرة علی تهيئة وسائل الحياة للانسان وهو قابع فی بيته ،

فالراديو يقدم له اخبار العالم ويسمعه من الموسيقى والاغاني

اجملها واعذبها ... والتلفزيون يريه الاحتفالات والمسارح

والافلام ، والهاتف يلبي طلباته من الباعة ويوصله بالاصدقاء ،

والجرائد تطلعه على اخبار المدينة ... وفي هذا كفاية ...
فاسمع ولا تضحك ...

سكينة : ثم انه يا اخي يسجننا كما يسجن نفسه ، فنحن منذ سنة تقريباً
لم نشاهد الشارع .

عبد الحسيب : هذا عجيب حقاً ... و كيف تصبران علي ذلك ...
سعاد : وماذا نعمل ...

عبد الحسيب : تستطيعان التمرد على ارادته ... و ليفعل ما يشاء ...
سعاد : يبدو يا خالي انك لا تعرف ابي ... انه لا يتورع عن ارتكاب
اكبر الحماقات تدعيماً لما يسميه سلطه الرجل في البيت ...
تلك السلطة التي ينبغي ان ينظر اليها كأنها شيء الهى لا يجوز
نقدها ولا التمرد عليها ...

عبد الحسيب : ا الى هذا الحد ...

سعاد : بل اكثر ...

عبد الحسيب : انه كما ارى مصاب بمرض نفسي خطير ويجب ان يعالج ...
سكينة : وبماذا نعالجه .. هات . هات بالله ...

سعاد : الديك دواء ؟ .. فكر بالامر يا خالي ، فلعلمك تستطيع
انقاذنا من جهنم ...

عبد الحسيب : الشيء المهم في الموضوع هو التمکن من اخراجه من البيت
مرة واحدة فقط . وبذلك نكون قد قطعنا الخيط الرئيسي
الذي ينسج عليه مرضه النفسي .

سعاد : طيب ... و كيف نستطيع اخراجه من البيت ... لقد نوعنا
الاساليب والحيل ... ولكن دون جدوى .

عبد الحسيب : عندي فكرة ... و اعتقد انها ستكون ناجحة ... نعم سارغمه

على الخروج من البيت ، في هذا اليوم انشاء الله ...

سكينة وسعاد: (بصوت واحد) أنت ...

عبد الحسيب: نعم انا ...

سكينة : وكيف ؟ ..

عبد الحسيب: أتركك في هذا الامر ، فتدخلكما به يفسده ... أطمئنا .

فمدة سجنكما ستنتهي ظهر اليوم بكل تأكيد .

(صوت عباس من الداخل)

عباس : يا سكينة ...

سكينة : نعم ماذا تريد . .

عباس : هاتي القهوة فلقد استيقظت ...

سكينة : عندنا اخي عبد الحسيب ... والافضل ان تتناول قهوتك هنا ..

عباس : (يدخل) اهلا بالسيد عبد الحسيب ... كيف حال العروس ..

عبد الحسيب: بخير والحمد لله .. انها تقبل يدك الكريمتين ...

عباس : وهل هي جميلة كما يقولون ...

عبد الحسيب: لا ادري ...

عباس : لا تدري ؟ ... هذا عجيب حقاً ...

عبد الحسيب: نعم ، فما يعجبني انا ، قد لا يعجب غيري ... والافضل ان

تزوجنا في بيتنا فتراها بعينيك وتعطينا رأيك بها ...

عباس : ولماذا لا تجيء بها الى هنا ... انت تعلم انني لا اخرج

من البيت .

سكينة : وقد يكون من الانسب يا أخي ان تحمل بيتك كله الى هنا

لتطلعنا عليه ...

عباس : اخرسي ... لقد فهمت ما تريدن ... كلا . لن تخرجي من هذا البيت ما دمت أنا على قيد الحياة ...

عبد الحسيب : او تمنعهم ايضاً من الخروج ... ولماذا ؟ ..

سعاد : وما الحاجة يا خالي الى الخروج من البيت .. عندنا راديو نستمع اليه ، وتلفون يلبي طلباتنا من الباعة وجراند تطلعنا على اخبار المدينة و تلفزيون يرينا المسارح والافلام السينمائية ... وبهذا يكون العالم كله قد تجمع في بيتنا ولم تعد هنالك ضرورة للخروج الى العالم والاتصال به ...

عباس : أتمكمين يا لعينة ... اخرسي انت ايضاً ... اخرسي والا .. عبد الحسيب : والا ماذا يا سيدي ... او تفكر بضرب بنتك ؟ ..

سكينة : كلا ... ولكنه يفكر بمنع خطيبها من الدخول الى البيت ... عبد الحسيب : اريد ان اسألك سؤالاً واحداً ، فهل تسمح بذلك .

عباس : سل ما شئت .

عبد الحسيب : لماذا تسجن نفسك ؟ ..

عباس : انا لا اسجن نفسي ، ولا اشعر قط بما يضيق من حريتي ... واني سعيد كل السعادة في هذا الجو الهاديء البسيط الذي اعيش فيه ... ولولا مضايقات اختك وبناتها وتدخلها فيما لا يعنيهها من امري لما كان هنالك في العالم كله من يستطيع ان يزعم بانه اسعد حالاً مني .

سكينة : انحن الذين نتدخل في شؤونك ام انت الذي يتدخل في الكبيرة والصغيرة من شؤوننا .. هل للرجل عمل في المطبخ .

عبد الحسيب : كلا ...

سكينة : سله ... ايفارق المطبخ منذ الصباح حتى المساء ...
عباس : اني ادخل المطبخ شفقة عليك ، لاساعدك في اعمالك لا اكثر
ولا اقل ...

سكينة : هل للرجل علاقة فيما تضع المرأة على وجهها من زينة او فيما
تختار لنفسها من الالبسة

عبد الحسيب : كلا ..

سكينة : سله ... الا يتدخل حتى في لون الصبغة التي نضعها على شفاهنا .
عباس : واي غرابة في ذلك ... فانا وحدي الذي سأنظر اليك
واستمع بهذه الصبغة ...

سكينة : أخي انك لاتستطيع ان تتصور كيف يعيش بيننا ، انه معنا
في كل مكان ... في المطبخ ، وراء الغسالة ، على المجلى ، بين
السيدات زبوناتنا ... يقترج ويوجه ويرشد وييدي ملاحظاته
في كل شيء ، فيما يعرف ومالا يعرف ... والويل لنا كل
الويل اذا اعترضنا على شيء تجود به فريخته النيرة ...

عباس : لولاي ... لولا تدخلني في امورك لكان البيت الآن كوماً
من الحطام ...

(لعبد الحسيب) علة زوجتي انها غير مثقفة ... وان لسانها
طويل بعض الشيء ...

سكينة : (تضرب صدرها بيدها) آه . آه . من ثقافتك العالية
ولسانك القصير ...

عباس : أتريدن أن اتكلم بصراحة .

سكينة : تكلم ... فمن ذا الذي يجروء على منعك من الكلام اذا اردت
ان تتكلم ...

عباس : (لسعاد) أخرجني يا بنتي .. هيتي لنا القهوة ...

سعاد : (تخرج) ...

عباس : قل لي يا اخي ... بالله اي امرأة في العالم مهما بلغ بها الحق

تسمح لبيتها بالخلوة مع خطيبها قبل العقد ... لقد دخلت ذات

مرة الى غرفتي فوجدتها في وضع سيء ... هل يصح هذا? ..

ولما ثرت وغضبت ووججت الخطيب على فعلته ، اتهموني بالرجعية

والسخف والتدخل فيما لا يعني من الامر ...

أناشدك الله يا اخي ان تقول الحق ... هل يعتبر هذا تدخلا

مني لا مبرر له ... انا اعلم ان النساء يتساهلن كثيراً في مثل

هذه الامور ... واقسم لولا وجودي في البيت بصورة دائمة

لأدى تساهل اختك الى اشياء في منتهى السوء ...

سكينة : طيب ... ولماذا لا تذكر لياخي قصة البنت سميحة ...

عباس : اخبرني ...

سكينة : كلا ، لا اريد ان اخبرك ... اريد ان اطلع اخي على اخلاقك

الطيبة ... لقد دخلت مرة غرفة البنات اللواتي يتعلمن الحياطة

عندي فوجدت ...

عباس : (مقاطعاً) اخبرني ... انا اتكلم ..

سكينة : لا لا ... انا اتكلم ...

عباس : بل انا ... انك تبالغين وتكذبين ...

سكينة : لا أبالغ ولا اكذب ، لقد دخلت فوجدت ...

عباس : اسمعي ... انا اقص القصة وعندما انقص شيئاً او ازيد يكون

لك الحق في مقاطعتي ... اسمع يا اخي ... (تدخل سعاد

فتقدم لهم القهوة)

عباس : اوه ... الحقيقة ان اعصابنا قد اصبحت في اشد الحاجة الى شيء من القهوة ينعشها وينشطها ... ولقد احسنت سعاد .
سكينة : نعم لقد حضرت في الوقت المناسب فأعفت اباهما من الاعتراف .
عباس : اعتراف ! ؟ انها رغم كل الايمان الغليظة التي اقسمتها ما برحت تشك في الامر .. ظني ما شئت ولكن اذكري ، ان بعض الظن اثم ...

سكينة : بل ان سوء الظن اذكى الفطن ...

عباس : لسان ! ...

الجميع : (يشربون القهوة صامتين)

عبد الحسيب : انا أعتقد ياسيدي ان وجودك في البيت هو الذي يسبب هذه المشاكل ، والا وفق فيما ارى ، لتستطيع الحياة في جو من الهدوء والراحة ان تترك البيت وتشغل فراغك في شؤون اخرى ، فادارة البيت من عمل المرأة وتدخل الرجل فيها يؤدي حتما الى الفوضى والاضطراب ...

عباس : أرجو ان تحتفظ بهذه الآراء لنفسك فلا تضيعها بين الناس ...

عبد الحسيب : نعم ياسيدي ... لا شيء يرهق اعصاب المرأة ويقتل شعورها الجميل بحب التنسيق والتنظيم مثل بقاء الرجل الى جانبها في البيت كل الوقت ... واذا شاء الرجل ان يكون محترماً ومحبوياً في بيته فعليه ان لا يمكث بين امرأته واولاده الا في اوقات الراحة ... والان استودعكم الله .. (ينهض) .

سكينة : مع السلامة لا تنسى ما وعدتنا به ..

عبد الحسيب : كوني مطمئنة ...

- عباس : أي وعد ؟ .. اهنالك اشياء لا تطلعوني عليها ...
- سكينة : انها امور خاصة ، ليس لك فيها اية علاقة ...
- عباس : اريد ان اعرف .
- عبد الحسيب : اطمئن يا اختي النتيجة ستكون مفرحة وسارة ... لا تنتظري
اكثر من ساعة .. (يخرج)
- عباس : الحقيقة ان اخاك عبد الحسيب رجل خبيث وذو افكار سيئة
للعناية ... اخبريني بماذا وعدك هذا الشيطان ...
- سكينة : لم يعدني بشيء ...
- عباس : انا رب هذا البيت ... انا سيده المطلق ولا يجوز ان يجري
فيه اي امر دون علمي ومعرفتي ... اتفهمين ..
- سكينة : كلا لا افهم ... فافعل ما شئت ... (تخرج منفعة)
- عباس : (لسعاد) رأيت ؟ ... ان اخلاقها تزداد سوءاً يوماً عن يوم ..
واخشى ما اخشاه في النهاية ان اضطر الى اتخاذ بعض التدابير
الخطيرة ...
- سعاد : تدابير خطيرة ؟ .. وما تعني بذلك يا بابا .
- عباس : الاحتمال طاقة وتصرفات امك السيئة فوق طاقة احتمالي ...
- سعاد : مسكين انت يا بابا ...
- عباس : مسكين فقط ... بل مظلوم ... منكود الحظ ...
بأس ... شقي ...
- سعاد : ولكنك يا بابا تستطيع ان تكون سعيداً لو اردت ...
- عباس : وكيف اكون سعيداً في هذا الجو المشبع بالخصومات
والمشاحنات ... ان امك العزيزة مشغوفة بمعاكستي في كل

شيء... فلو قلت لها ان السماء زرقاء لانبرت تقيم الدليل على انها سوداء .

سعاد : الحق في جانب امي ...

عباس : كيف ؟ ...

سعاد : لقد اثبتت رحلة جاجارين الى السماء سواداً في الليل والنهار

وان اشعة الشمس التي نراها في النهار هي من عمل الجو الارضي .

عباس : اوه .. دعينا من المزاح يا بتي .. قولي اليس ت تصرفات امك

الجمقاء هي التي تخلق الفوضى والمشاكل ...

سعاد : كلا .. بل ان وجودك في البيت بصورة دائمة هو الذي يخلق

الفوضى ويسبب المشاكل ...

عباس : اخرسي ايها اللعينة ... فأنا اعرف ما تقصد من وراء ذلك .

سعاد : وماذا اقصد ؟ ...

عباس : لست من الغباء في الدرجة التي تتصورين ... انا هنا ...

وسأظل هنا ... وسأفتح عيوني اكثر من السابق .. افهمت ؟ ..

(يرن جرس الباب)

سعاد : من ؟ ... (صوت زكي خطيب سعاد)

زكي : أنا افتحي ...

سعاد : اوه ... انه خطيبي زكي افندي (تخرج مسرعة)

عباس : (لنفسه) لقد جاء المسكين متأخراً ... فأنا الان مستيقظ ! .

(يدخل زكي افندي وسعاد)

زكي : صباح الخير يا عمي .

عباس : (يصفحه) صباح الخير ... لقد جئت مبكراً على غير عادة ..

- زكي : انه يوم عطلة ...
- عباس : اليوم الجمعة ؟
- زكي : نعم سيدي .
- عباس : عجيب ... كنت اظنه الاحد .. ولكن ما الفرق ، الايام كلها واحدة ... فالاحد كالجمعة ، والجمعة كالسبت .. هاتي . هاتي يا بنتي طاولة النرد ، فلقد علمت ان خطيبك يتقن هذه اللعبة ...
- زكي : لا يا سيدي لا .. انا اجهل اللعب بالنرد جهلاً تاماً ..
- عباس : لا يهم .. تستطيع ان اجعلك لاعباً ماهراً في مدة لا تزيد عن عشر دقائق .
- زكي : يا سيدي .. ارجوك .. أنا اكره اللعب بالنرد ...
- عباس : حسناً ، فلنلعب بالورق اذن ... هاتي (الشدة) ..
- زكي : ولا هذا ايضاً .
- عباس : طيب ... فماذا نسليك اذن ؟ .. هاتي يا بنت ديوان المتنبى .
- زكي : انا لا احب الشعر ولا اتذوقه ...
- عباس : لا بأس ، ناوليني ياسعاد قصة طرزان ، فهو يقرأ لنا ونحن نستمع اليه ...
- زكي : اني لا احسن القراءة يا سيدي .
- عباس : لا تحسن القراءة ... وكيف جعلوك اذن رئيس دائرة ...
- زكي : لقد مات رئيس دائرتنا وكان ولا بد من ترفيع اقدم الموظفين الى مرتبته فرفعت انا .. ، وهكذا فقد اصبحت رئيس دائرة بالمصادفة .

عباس : عجيب ان يحدث مثل هذا في هذه الايام ... فالشهادات العالية
اكثر من الورق الابيض ... وبهذه المناسبة فسأروى لك
الآن قصة تعيني في الوظيفة جابياً وخروجي منها محاسباً ...
انها قصة عجيبة ... ولو وجد لها قصاص ممتاز يسجلها تسجيلاً
فنياً لكانت من القصص العالمية الجديرة بالخلود ...

زكي : انا لست قصاصاً ياسيدي ولا خبيرة لي في هذا الفن .

سعاد : (متدخلة) ان زكي افندي يريد ...

عباس : اسكتي انت ... فانا اعرف ما يريد زكي افندي ! ..

زكي : اين هي امرأة عمي ؟

سعاد : في غرفتها ... سأذهب لآخبارها بقدمك .

عباس : دعها ... فهي مريضة ... والصمت يلائمها ...

سعاد : بل ستكون مسرورة حين تعلم ان زكي افندي في زيارتنا ..

(تخرج)

زكي : (يهم باللاحاق بسعاد)

عباس : الى اين ياسيدي ... الى اين ؟ ...

زكي : اريد ان استفسر عن صحة امرأة عمي ..

عباس : لا يخف عليها ... وصدقني اذا قلت لك ان (عزائيل واحد)

لا يكفي لقبض روحها ... خذ سيكارة ياسيدي فالدخان

يهدىء من اضطراب اعصابك ...

(تدخل سكينه وسعاد)

سكينه : (ترحب بزكي بحرارة) اهلا .. اهلا بولدي العزيز .. شرفت ..

تفضل ، اجلس .

- عباس : (يرمق زوجته بنظرة ساخرة ويسعل)
سكينة . اوه .. لقد اطلت الغياب .. انتظرنا تشريفك في الاسبوع
الماضي فلم تحضر .. الليمون يا سعاد ، فالطقس حار جداً .
- عباس : (متدخلا) لا لا ... القهوة في الصباح احسن ... اليس
كذلك يا زكي افندي . ?
- زكي : كما تريد يا عمي ...
عباس : بارك الله فيك ...
- سكينة : (لعباس) او تريد ايضاً أن تقرر ارادتك علينا فيما نحب ان
نأكل ونشرب . ليمون يا سعاد ..
- عباس : (بلهجة أمره) قهوة يا سعاد ...
سعاد : (سعاد تقف حائرة مترددة)
- سكينة : ليمون . ليمون ... انا اقول : ليمون ..
عباس : قهوة ... قهوة .. انا اقول : قهوة .
- زكي : الافضل عدم تقديم شيء ... لا ليمون ولا قهوة ...
سكينة : طيب ... هاتي جمع الشوكولاتة .
- عباس : شو كولاتة !
- سكينة : هل لك اعتراض ايضاً ...
- عباس : كلا ... ولكن كيف زعمت بالامس حين طلبت منك قطعة
من الشوكولاتة ان الجمع قد فرغ .
- زكي : يبدو ان وجودي بينكم يسبب لكم بعض المشاكل ، فاسمحوا
لي بالانصراف وسأعود في فرصة اخرى (يخرج)
- سعاد : (مستاءة) لقد كان من الممكن ان نسيطر على اعصابنا بعض

الوقت امام الناس الغرباء .

سكينة : ايسرك هذا ؟ ..

عباس : كلا لا يسرني ... ولكنه ايضاً لا يؤلمني ..

سكينة : واخيراً ...

عباس : اوضحني ... ماذا تريدن ؟ ... فانا لا افهم من كلمته

(واخيراً) اي شيء ...

سكينة : اريد ان تستمر حياتنا هكذا ؟ ...

عباس : نعم ، فالحياة هكذا جميلة وممتعة ، ولا ادري لماذا لا تروقك ؟ ..

سكينة : لا ادري اذا كان من الممكن ان يتبدل الانسان الى هذه

الدرجة فيرى من هذا الجحيم الذي نعيش فيه اشياء جميلة

وممتعة ... اريد ان اخرج .

عباس : الى اين تخرجين ... ؟

سكينة : لن امكث بعد الآن دقيقة واحدة في البيت وسأغلق المحل ..

عباس : انا لا اجبرك على العمل ولكنني امنعك من الخروج ...

سكينة : سأخرج ، سأخرج ... ؟

عباس : اخرجي اذا كنت تستطيعين ... لماذا تقولين ذلك وانت

واقفة مكانك ...

سكينة : وما عسى ان تفعل حين اتمررد على ارادتك ...

عباس : عندما يعتزم الانسان ان يتمررد لا يهمه ما سيفعل الآخرون ..

سكينة : أتطلقني ...

عباس : لا يؤلمني ابداً ان تكوني ثالثة من اطلق ...

سكينة : (تنهالك على المقعد) كن انساناً بعض الشيء .. انك تقتلني ..

(يون جرس الباب)

- عباس : يا سعاد ...
سعاد : (تدخل)
عباس : انظري من في الباب .
سعاد : (تخرج ثم تعود) انه شرطي ... يريد ان يبلك قراراً ...
عباس : شرطي ؟ .. وقرار ؟ .. هذا مدهش (يخرج)
سعاد : ماذا تظنين يا ماما ...
سكينة : لا ادري .. فأبوك منقطع عن الناس منذ زمن بعيد ...
(يعود عباس ويده ورقة مطبوعة وعليها خاتم رسمي)
عباس : (يقرأ بصوت مرتفع)

الى السيد عباس افندي عبد الكريم .

لقد تبين لنا من التحقيقات التي اجرتها شرطة المدينة انكم تقومون باتصالات مشبوهة مع بعض الشخصيات ، ولما كان عملكم هذا يهدد امن الدولة وسلامة الوطن ويؤدي الى نتائج سيئة ليست في صالح الشعب لذلك قررنا نحن حاكم المدينة فرض الاقامة الجبرية عليكم في بيتكم الى اجل غير مسمى ، وكل مخالفة لاحكام هذا القرار تضطرونا الى اتخاذ اجراءات زجرية في منتهى الصرامة .

حاكم المدينة

هذا مدهش ؟ .. اتصالات مشبوهة ؟ .. وشخصيات ...

(يتمشى قلقاً)

سعاد : وما المسألة يا بابا ..

عباس : يفرضون علي الاقامة الجبرية في بيتي الى اجل غير مسمى ..

(يضحك منهكما) يبدو سيادة الحاكم لا يعلم انني افرض هذه
الاقامة على نفسي منذ مدة طويلة .. ولا حاجة لاصدار قرار ..

- سكينة : (تهمس بأذن سعاد ببضع كلمات)
سعاد : (تهز رأسها وكأنها فهمت)
عباس : (يجلس هنيهة ثم يقف) اذن فانا الآن سجين .. سجين بأمر
الحاكم ، ولا استطيع الخروج من البيت اذا اردت ...
سكينة : هذا اكيد ... فالقرار صريح لا لبس فيه ولا غموض ..
عباس : (يتمشى مضطرباً) يا للفضاعة اني لا اطيق ذلك ...
سكينة : انه امر الحاكم و عليك ان تطيع .
عباس : اشعلي الكهرباء ...
سعاد : نحن في النهار .
عباس : اقول اشعلي الكهرباء ..
سعاد : (تشعل احد القناديل) .
عباس : اشعلي قنديلا آخر ... كل القناديل .
سعاد : الضياء كاف ...
عباس : كلا ، ليس بكاف ... الشمس لا تضيء جيداً هذا اليوم ،
اشعلي كل الانوار ...
سعاد : (تشعل بقية القناديل)
عباس : اذن فانا الآن سجين بأمر الحاكم ..
سكينة : بكل تأكيد ... و عليك ان تطيع ..
عباس : ما هذه الرائحة البشعة .. رائحة العفن والرطوبة .. هاتي
الكولونيا .

- سعاد : (تعطيه زجاجة الكولونيا)
- عباس : (يغسل وجهه بالكولونيا) ما هذه الكولونيا القذرة ... انها ذات رائحة كريهة ... فيها شيء من الكافور ... فيها شيء من رائحة الموتى . . . ابعديها ...
- سعاد : (تضع الزجاجة بعيداً)
- عباس : اذن فانا الان سجين بأمر الحاكم ...
- سكينة : بكل تأكيد ... عليك ان تطيع ...
- عباس : اوه ... افتحي هذه النافذة يا سعاد ...
- سعاد : (تفتح النافذة)
- عباس : افتحي الثانية والثالثة ... افتحي كل النوافذ.. كل الابواب
- سعاد : (تفتح النوافذ والابواب)
- عباس : هذا لا يكفي .. (بلهجة جنونية) اقول لا يكفي ...
- افتحي باب الدار
- سعاد : (تمهم بالخروج)
- عباس : (يصرخ) قفي ... انا افتح الباب بيدي ..
- سكينة : لا تنسى انك سجين بامر الحاكم و عليك ان تطيع ...
- عباس : (يلتف اليها) وما عسي ان يفعل الحاكم اذا خرجت ...
- سكينة : لا ادري ، ولكن ستعرض نفسك بلا ريب الى عقوبة اشد ..
- عباس : هاتي الطربوش ... وليشنتقي الحاكم اذا شاء ...
- (يأخذ الطربوش ويخرج كالهارب من السجن)

الستارة

معرفة

مسرحية ذات فصل واحد

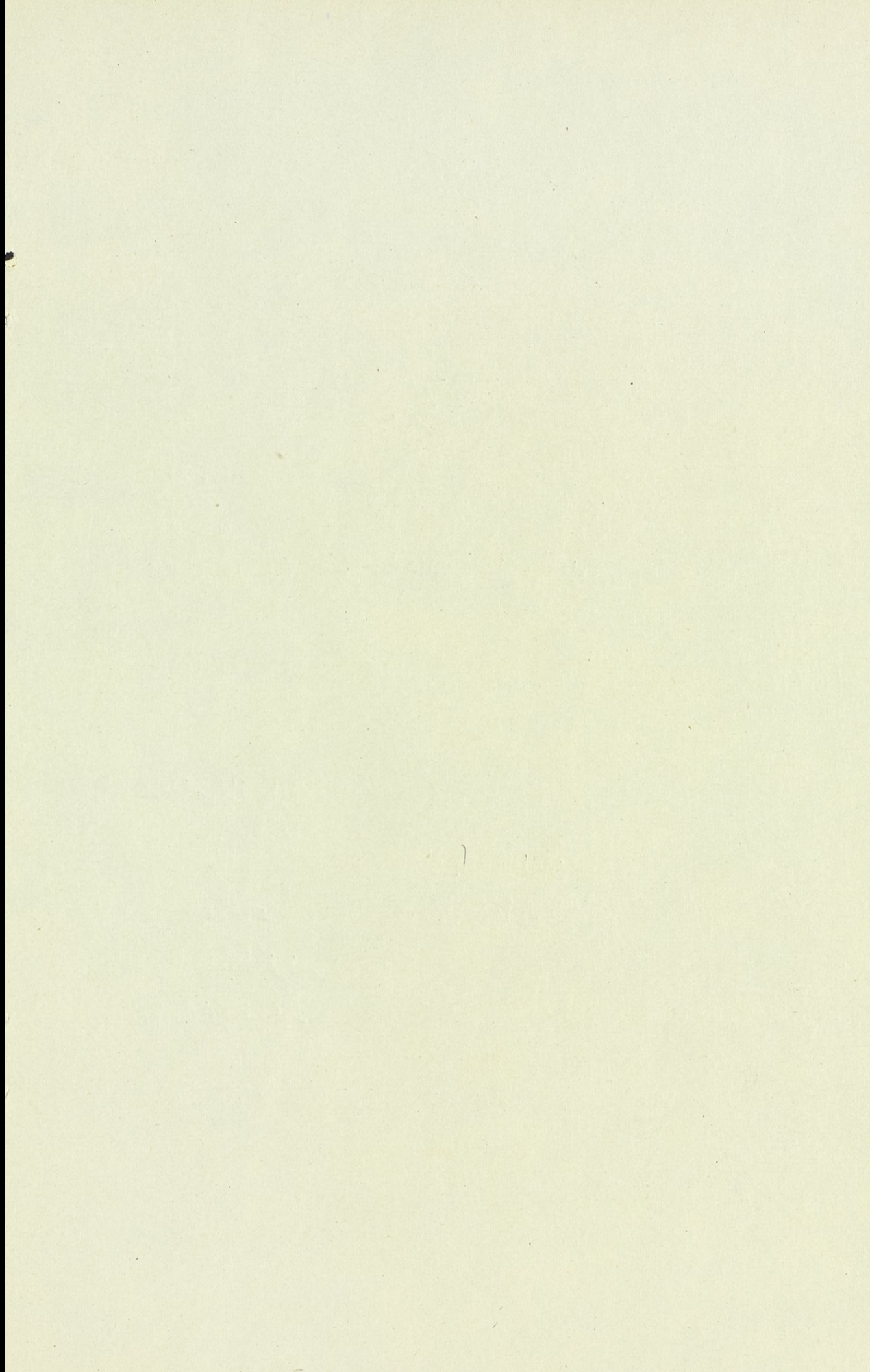
أشخاص الرواية :

الطحان : صالح

أجيره : مسعود

ضابط فرنسي

اربعة جنود



الزمامت : ليلاً

المكان : طاحونة مائة .

(يرفع الستار عن العم صالح جالساً على اكياس الدقيق
الفارغة وقربه اجيره مسعود . وصالح في الستين من العمر
هزيل الجسم طويل القامة يرتدي السروال ويضع على
رأسه الطاقية) .

صالح : لقد تأخر الجماعة .

مسعود : لن يحضروا قبل منتصف الليل .. هكذا شأنهم في كل ليلة ..
واري يا عم ان نمضي الى بيوتنا ، فالبرد شديد ، وقد
يتساقط الثلج ...

صالح : كلا ، لن اذهب قبل حضورهم . . فليس من اللائق ان
يحضروا فيجدوا باب الطاحونة مغلقاً في وجوههم . . لقد
اعتادوا ان يناموا هنا منذ عدة اسابيع ، فعلى الرحب
والسعة ، . . وهذا اقل ما يجب ان نفعله من اجل هؤلاء الابطال
الذين يضحون بحياتهم في سبيل اوطانهم ...

مسعود : ولكن يا عم اريد ان انبهك الى امر قد لا تكون على علم به ،
وهو انك حين تسمح لهم بالالتجاء الى طاحونتك فانما تعرض
الطاحون لخطر التدمير ، والنسف بالديناميت . . فلقد بدأ
الفرنسيون ينفذون خطة جديدة في الارهاب ، وهي تدمير
كل مكان يأوي اليه الثائرون . . لقد دمروا بالامس عدة
بيوت لمجرد الشبهة واحرقوا كوخ الصياد ابي علي لانهم
وجدوا فيه قطعة صغيرة من الديناميت ...

صالح : هذا لا يخيفني ولا يرهيني . . ليدمروا الطاحونة اذا شاؤوا ،

ليفعلوا ماتوحي به انفسهم الحبيثة من اجرام وشروو
 فلست احرص على شيء اي شيء اذا كان يساعد الثائرين على
 قهر اعدائنا . آه . لو كنت اصغر سناً بما انا الآن ، عشر
 سنوات فقط لما كانت هنالك قوة تمنعني عن الالتحاق بالثورة .
 ادفع الي يامسعود . انني اخشى ان يحضروا في وقت لا اكون
 انا موجوداً فيه . لذلك فاني سأطلعك على نوع الصغير المتفق
 عليه بيني وبينهم . . . (يخرج من جيبه صفارة) اسمع . . .
 (يصفر صفرة قصيرة واخرى طويلة ممدودة) هذا الصغير يدل
 على ان المكان آمن ولاخطر عليهم من دخول الطاحون
 (يصفر صفرة ثانية طويلة حادة) واما هذا الصغير فهو ،
 يشير الى الخطر وينبههم الى وجوب التأهب لكمين او
 مفاجأة . . افهمت .

مسعود : نعم فهمت ؟

صالح : طيب ، خذ هذه الصفارة وضعها في جيبك فقد تحتاج اليها
 في حال غيابي عن الطاحون . . .

مسعود : (يأخذ الصفارة ويضعها في جيبه) الديك واحدة ثانية .

صالح : لو لم يكن لدي واحدة ثانية لما اعطيتك هذه . . ارفه السمع

يامسعود فالرياح شديدة في الخارج ، واخشى ان لا نسمع
 صغيرهم الذي ينبيء بوصولهم . . انهم حذرون جداً ولن يجروا
 على دخول الطاحون قبل ان يسمعوا جوا بنا على صغيرهم . .
 لقد حدث مرة ان كانت صفرتي الثانية قصيرة المدى فلبثوا
 ينتظرون بعيداً حتى خرجت اليهم بنفسي وادخلتهم . . الحق
 معهم فلقد حشدت فرنسا كل قواتها لاخضاعهم . . .

مسعود : لا ادري لماذا انا قلق وخائف .. ان نفسي تحدثني بان هذه
الليلة لا يمكن ان تمضي بسلام . . لقد اخبرني ابي بالامس
ان الفرنسيين بعد ان اخفقوا بمجاولاتهم الاخيرة في الكشف
عن مخابيه الشوار ضمن المدينة بدأوا في تطويق البساتين وهم
الان يتحرونها بستاناً بستاناً و كوخاً كوخاً . . ولا يبعد
في كل لحظة ، ان يدهموا هذه الطاحونة وارى انه في الاوفق
ان نغلق الباب ونذهب الى بيوتنا .

صالح : وما الذي نخشاه من قدومهم ...

مسعود : ان هؤلاء الحمقى والمجانين لا يتورعون عن ارتكاب افظع
الجرائم لمجرد اللهو والتسلية وقصة المرأة التي قتلوها وهي نائمة
في فراشها مازالت حديث البلد ..

صالح : كلا . . . لن اغلق باب طاحونتي في وجوه اولئك الذين
يقاتلون من اجلنا ، ان الوطن ليس لهم وحدهم وانما هو لكل
الناس انه للجميع ان يعملوا لتخليصه من المستعمرين

مسعود : ولكن ياعم ثق بان هذه الطاحونة ستدمر الليلة . . لقد حلت
بالامس حلماً مزعجاً ..

صالح : وما هو هذا الحلم ؟

مسعود : رأيت النار تلتهم الطاحون .

صالح : لتذهب الطاحون الى الجحيم فما قيمتها اذا ماقيست بالاعمال
الكبيرة المجيدة التي يؤديها الثائرون الى اوطانهم ...
(فترة من الصمت)

مسعود : (مصغياً بانتباه شديد) اتسمح ياعم ..

صالح : ماذا ؟ ..

- مسعود : هنالك ضجة في الخارج ..
- صالح : انها صوت الرياح ...
- مسعود : (بخوف) كلا ... فهناك لعط ، وقعقة سلاح ..
- صالح : لعلمهم الثوار ...
- مسعود : لم نسمع اية صفرة تدل على قدومهم .. اسمع بالله .. انهم
الفرنسيون بكل تأكيد ..
- صالح : ولم انت خائف مضطرب ؟ ...
- مسعود : قم لنهرب بالله ...
- صالح : نهرب ... آه يا جبان ...
- (تسمع اصوات الجنود واضحة من الخارج) من هنا ...
- تقدموا بجذر اطلقوا النار فوراً على كل من يتحرك ...
- مسعود : (ناظراً الى السماء) يارب ليس لي سواك فاشملي برحمتك ..
- صالح : اذا كنت خائفاً الى هذه الدرجة ، فادخل الى المستودع
واختبيء بين اكياس الدقيق اما انا فسأقابلهم وكأنني رجل
ابله لا يفقه شيئاً ... اذهب .
- مسعود : (يخرج راكضاً) .
- صالح : يارب هب لي من القدرة ما استطيع به ان اقابلهم وانا رابط
الجأش قوي الاعصاب (يدخل بضعة جنود من الفرنسيين
وعلى رأسهم ضابط شاب)
- الضابط : (شاهراً مسدسه) اوه . انت هنا وحدك يا عين .. ماذا تفعل .
ولماذا لا تكون في بيتك في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ..
- صالح : (مبتسماً بغباء) وما عسي ان افعل غير ان اشتغل .. انني
أرقع هذه الاكياس الممزقة .. انني اعلم الليل والنهار

لا تمكن من اطعام اطفال العشرة .. البيت لا يرحم ياسيدي ..
 وزوجتي شرهة تأكل في اليوم الواحد ما لا يأكله خمسة من
 رجالكم في اسبوع .. هل انت متزوج .. يبدو انك صغير
 السن ، ولم تقع بعد في مثل هذه المشاكل الصعبة .. ان
 زوجتي تضربني عندما اعود الى البيت فارغ اليدين .. ومع
 ذلك فانا احبها واعطف عليها ، وهل يستطيع الانسان ان
 ينسى صحبة اربعين عاماً .. ارجو ان تكون ادركت لماذا
 يشتغل هذا الشيخ الضعيف الجالس امامك عشرين ساعة
 بلا توقف .

الضابط : (يركله بقدمه) انهض ...

صالح : العفو سيدي ... لقد نسيت انه من الواجب ان يستقبل
 الانسان ضيوفه واقفاً .

الضابط : (للجنود) اذهبوا فتحروا الطاحون .

الجنود : (يخرجون)

صالح : (للضابط) اذا كنتم تريدون ياسيدي الضابط شيئاً من السمك
 فعندي منه كمية محترمة .. لقد اصطدت هذا اليوم ثلاثة

ارطال من السمك البني الفاخر ..

الضابط : اخرس ...

صالح : ان الضباط الفرنسيين جميعاً يأتون الى هنا فيأخذون ما
 اصطاده بلائس ... وانه ليدهشني ذلك .. ولا ادري اذا
 كنتم في فرنسا بلدكم لا تدفعون قيمة ما تشترون من حوائج
 ولئس صح ذلك فانه لشيء لذيذ والله .. وهل اجمل من ان

يبتاع المرء ما يشاء من الحوائج ويمضي الى بيته دون ان
يدفع ثمنها ...

الضابط : (لنفسه) لعله مجنون ..

صالح : اهلا وسهلا .. اهلا اهلا ... انه ليؤسفني يا سيدي ان ليس

لدي ما اجلسك عليه ... لا حصير ولا كرسي ولا قلاطق ولا

اي شيء آخر سوى هذه الاكياس لو تفضلت وزرتني في بيتي

لاجلستك على (مقعد) من الحرير ولقدمت اليك القهوة والشاي

الضابط : ايها اللعين ، الا تصمت ، الا تكف عن الترتة ...

(يدخل الجنود)

احدهم : لا احد في المستودع .

الضابط : (لصالح) قل لي اين جماعتك الاشقياء .

صالح : جماعتي الاشقياء ؟ ! ما تعني بذلك يا سيدي نحن هنا جميعاً

اتقياء ... نصلي الاوقات الخمسة ، ونصوم رمضان ...

الجنود : (يضحكون)

الضابط : (ينهرهم بشدة) صه ...

احدهم : انه مجنون يا سيدي ...

صالح : اسمع يا سيدي فعندي لك حكاية جميلة : كان لي اجير اسمه

عبد الستار ...

الضابط : (يركله بقدمه) الا تصمت ... اني اسألك عن الثوار ...

صالح : آ ... الان فهمت ... تعني الثيران ... انا يا سيدي

لا استعمل الثيران في عملي ... عندي خمسة حمير تحمل الاكياس

الى المدينة ... اسمع يا سيدي بالله هذه الحكاية : كان لي

اجير اسمه عبد الستار وكان الجيث ...

الضابط : (يبصق عليه) اصمت ، خنزير ، قدر .. اني اشك في كونك

ابله حقيقة .. اولست من ابناء هذه المدينة .. انا لا استطيع
ان اتصور كيف امكن لمدينة بكاملها ان تتفق على حماية عدد
ضئيل من الاشقياء يهددون الامن ويقومون باعمال الشقاوة
باسم الوطن والحرية .. ولكننا سنعرف كيف نوديكم .

صالح : العفو سيدي . قلت انني من ابناء هذه المدينة وهذا خطأ فانا

من حماة .. لا اعني انا بالذات بل جدي الذي تزوج بامرأة
من حمص اغرته بترك بلده والاقامة في هذه المدينة .. وعلى
كل حال يا سيدي فاني اكراماً لك ولهؤلاء الرجال الطيبين
الذين يلتفون حولك وسأطحن لك الكمية التي تريدها من
الحبوب ... بلا اجرة ...

الضابط : اعتقد انك تتظاهر بالغباء لتنجو بجلدك ... ولكني لن اتركك

هكذا دون ان تأخذ نصيبك ...

صالح : (مظهر الفرح) آخذ نصيبي .. ومن اي شيء يا سيدي ..

لقد سمعت عن كرم الفرنسيين الكثير ... ولم اكن اصدق
بالامس دخل جنودكم الى بستان جارنا فذبحوا بقرة الوحيدة
واكلوا لحمها .. وصادف ان كنت مارا آنهذ فدعوني الى
الطعام فاكلت معهم من تلك البقرة الطيبة .. ولم ينسوا في
النهاية مبالغة في الكرم ان يحلوني جلدها .. وكان البستاني
صاحب البقرة واقفاً على باب البستان يلطم وجهه كالسكران
لماذا ؟ ... لا ادري ؟ ... اعلمه كان مستاء لعدم دعوته
للاكل معهم ...

- (يسمع في الخارج صوت صفير حاد)
- الجميع : (ينتبهون وعلى وجوههم علامة الذعر)
- صالح : (دون اكتراث) انهم يصفرون . . .
- الضابط : من هم ؟ . . .
- صالح : الحراس . . . فلعل احد اللصوص قد سطى على احد البيوت . . .
- فوقعت الواقعة . . .
- (تسمع صفرة ثانية)
- الضابط : انهم الاشقياء بلا ريب . . . (للجنود) خذوا حذرکم . . .
- صالح : (يخرج صفارته) معي صفارة جميلة كصفارة ذلك الحارس . . .
- اسمع ان لها صوتاً كتغريد البلابل .
- (يطلق صفرة طويلة حادة)
- الضابط : (يطلق النار عليه فوراً) آه يا ندل . كيف استطعت ان
تخدعني بمثل هذه السهولة .
- صالح : (واقعاً على الارض) آه قتلت . . . (ملتفتاً الى الضابط)
والكن ثق بانك لن تخرج من هذا المكان حياً . . .
- (صوت طلقات غزيرة من جانب الثوار)
- الضابط : (يختفي وراء حجر الطاحون) . . . انت فرانسوا هنا . هنري
هناك عند باب المستودع سيزار على النافذة الشمالية . جاك
الى الباب . . . نار . . .
- الجنود : (يطلقون النار ، وتستمر المعركة بضع دقائق رهيبة عنيفه)
(يدخل احد الجنود)
- الجندي : سيدي النار تلتهم الطاحون . . . لقد اشعل رجل مجهول النار

في المستودع والقي بنفسه في النهر ..

الضابط : لقد قضي علينا .. دافعوا حتى الموت .. حتى الموت ..

الثوار : (من الخارج) الله اكبر الله اكبر .

الجنود : (يخبئون وراء حجر الطاحون مذعورين)

احد الثوار : (من الخارج) قفوا وارفعوا أيديكم ايها الجبناء ،

الجنود : (يقفون ويرفعون ايدهم)

الستار



وہاں سے لے کر آج تک

میں نے جو کچھ لکھا ہے وہ سب اس وقت لکھا ہے

جب میں نے اس کتاب کو لکھا ہے

میں نے اس کتاب کو لکھا ہے

میں نے اس کتاب کو لکھا ہے

میں نے اس کتاب کو لکھا ہے

میں نے



المحتوى

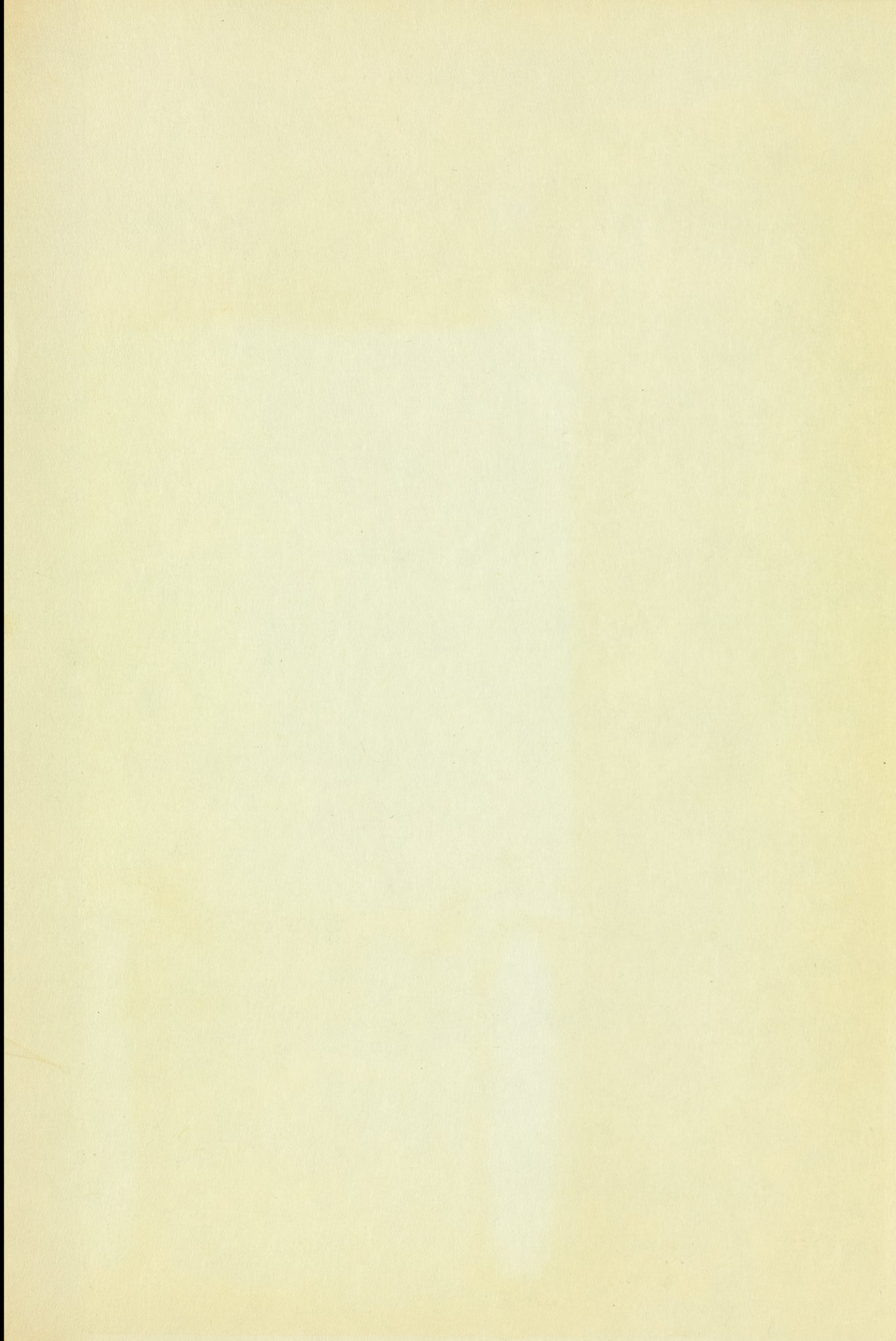
<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
المقدمة	٧
الشرارة الاولى	١٥
القارب	٢١
اقرضني عشر ليرات	٢٩
مع الحياة	٣٨
قبور تتزاور	٤٨
لقطة	٥٤
هروب من المدينة	٦١
العودة	٦٧
اصابة بالملايا	٧٥
انه ابو غازي	٨١
سوء الحظ	٨٩
دجاجة ام سليمان	٩٥
بغلة العم عثمان	٩٧
سجين الدار	١٠١
معركة	١٢١

طبع في

مطبعة طرين ١٧٩٢٧



منشورات دار الثقافة في دمشق



COLUMBIA UNIVERSITY



0026813408

956.9

Sy27

4

APR 13 1964 OCT 1 1964

956.9 - Sy27

4